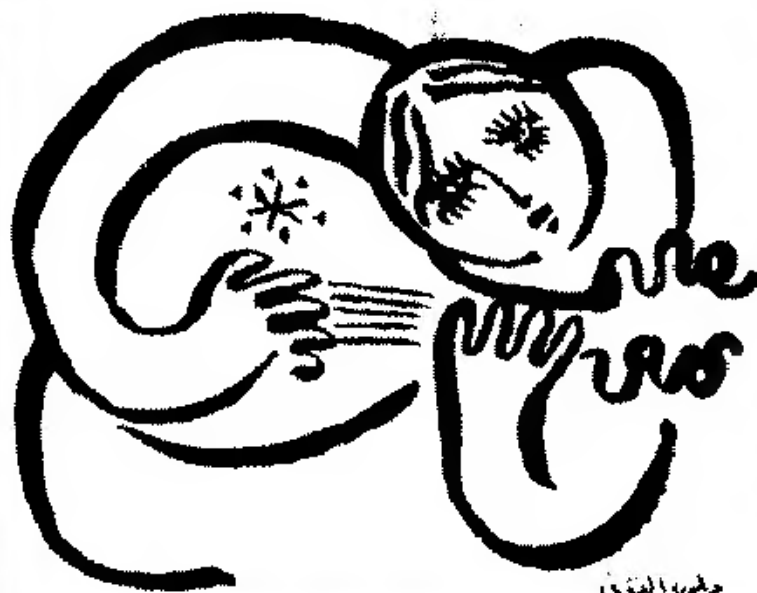


الحرف منفرد

يوسف إدريس



ملحمة الفوق

لَحْزَفِ مُنْفَرِدٍ

یوسف ادریس

کشف منفر

دارالشروق

حديث

تهمة لا أنفيا :

• • قالت الشائعات إن فترة المرض حولت فنانا الكبير إلى متصوف يرى الله في داخله .. ثم جاءت كتاباتك الأخيرة شبه مؤكدة لهذه الشائعات ..
لماذا عن رد هذه « التهمة » ١٩ ..

ضحك وهو يقول :

— هذه تهمة لا أنفيا وشرف لا أدعيه . فاللدى لا يرى الله في داخله ، ليس هو فقط غير متصوف أو غير مؤمن .. ولكنه غير إنسان بالمرة .. ولست من أولئك الذين يحبون أن يتحدثوا عما يؤمنون به .. فأنا في داخلي معمل إيمان لا يتوقف عن البحث والتنقيب ، والتجريب والرفض . والعدول والقبول . معمل هذا غير ملتزم بإصدار نشرة دورية عن « أحدث » ما وصل إليه ا .

وأعتقد أن « الشائعات » صيغت بهذه الطريقة كي أبدوا في نظر الناس كأنى لم أكن مؤمنا بالله ، ثم آمنت به أخيرا بعد المرض .. لكن كيف وضعت « حيثيات » قضية خطيرة كهذه وأنا نفسى لا أعرف عنها شيئا ١٩ .

بنى وبينك .. أنا لا أستطيع أن أضع إجابة محددة لهذا السؤال . لاني

الماضى ولا فى الحاضر ولا فى المستقبل .. أنا لا أكاد أعرف من أنا .. أعرف الله - سبحانه - أو أعرفه للآخرين ؟ .. كل ما أستطيع قوله فى هذا المضمار هو أنى أكون - فى معظم الأحيان - صادق الإيمان بالكلمة حين أكتبها وبالفعل حين أفعله ..

ترى .. هل أجبتك ؟ .. ١٩ ..

فلنستبعد حكاية الزعامة :

شغلت بتأمل طريقته فى الكلام .. هو أحد فنانينا الكبار الذين بمقدورهم أن يسيطروا على الكلمة المنطوقة .. أكثرهم تتجلى عظمة مواهبهم عندما يسكون بالقلم . لكنهم عندما يتكلمون فلا فرق بينهم وبين سائر الناس ...

يوسف ادريس يتكلم بنفس البراعة التى يكتب بها .. رأيته مرة فى بيت رجاء النقاش « يحكى » لمن حوله عن مشكلة ما صادفت أحد معارفه .. طريقة « الحكى » عنده تأخذ شكلا دراميا دون أن يقصد .. كان يقدم فى الحكاية أشياء ويؤخر تفاصيل ، ثم يكشف عنها شيئا فشيئا - والذين يجلسون حوله يحبسون الأنفاس .. وكلما توغل فى « الحكى » ظهرت مفاجآت جديدة ومشوقات .. كل هذه بطريقة عادية جدا وبلا جهد ، والسؤال المطالب : « وماذا بعد ؟ .. » واضح على وجوه الجالسين .

إذن - قلت لنفسى لحظتئذ - أنت أمام قصاص بالسليقة .. من غير المعقول أن يعقد لواء الزعامة فى فن القصة القصيرة فى عالمنا العربى للإنسان

« ما لم يكن هذا الإنسان قد ولد ليكون قصاصا .

« دكتور يوسف.. اتفق النقاد - وبما يشبه الإجماع - على زعامتك
للقصة العربية القصيرة .. إلا أن الناقد الكبير جبرا إبراهيم جبرا يقول
إن قصصك مبنية على « رؤية روائية » بحيث تبدو القصة وكأنها
« رواية مكثفة » ومن ثم فهو يعتبرك روائيا لا كاتباً للقصة القصيرة ..
وهل ثمة « دفاع » ١٩ ..

رفع كفه إلى أعلى وقال بلهجة المحتج :

« أولا فلنستبعد حكاية « الزحامة » هذه ، ويكفيها ما ينص به عالمنا العربي
من زعامات .. ١ ..

ثم أراح يده على المائدة وعاد إليه صوته الطيبي :

« ثانيا أنا أوافق الأستاذ الكبير جبرا إبراهيم جبرا على مسألة « الرؤية »
فالرؤية الروائية لا تختلف عن الرؤية القصصية القصيرة إلا إذا اختلف الإنسان
الطويل عن الإنسان القصير ، كلاهما إنسان .. ولهذا فأنا أضحك عندما يقال
هذا كاتب روائى وهذا كاتب أقصوصة . كلاهما كاتب روائى وكاتب أقصوصة
كأن فى هذا نوعا من التعريف مع أنه فى رأى نوع من اللاتعريف .. المهم فى
الموضوع كله هو « الرؤية » سواء كان الشكل الفنى هو القصة القصيرة أو
الرواية .. وعلى كل حال فإن القصة - بنوعها - قد انفصلت تماما فى عصرنا
الحديث عن جذتها وأما .. أعنى عن الملحمة والحدوتة .. صارت نوعا آخر
جديدا له وظيفة أرق بكثير من « طريق الندامة » و « سكة السلامة » والموعظة

الحسنة .. لكن هذا موضوع يطول شرحه .. هو في حاجة إلى بحث .. ربما كتاب ..

ماهية القصة :

.. * قلت مرة إن القصة « فن دقيق جدا وخطيرا جدا .. ومتقدم جدا حتى على العقلية السائدة في العالم اليوم ، والبشرية حتى الآن لم تكتشف « ماهية » القصة » .

هل نطمح في شيء من التوضيح ؟

نظر قليلا إلى سفينة بعيدة بدت لنا تصعد وتهبط في خط الأفق قبل أن يقول :

– الفن باعتباره نوعا من التكوين البيولوجي للإنسان ، لم يكتشف دوره تماما بعد .. وأعتقد أنه لن يكتشف إلا إذا اكتشفت كل أسرار الحياة .

ولنتأمل الحقيقة البسيطة التي تقول إن النبات يحزن ويفرح ويستجيب للموسيقى والحنان .. مادام هذا يحدث لأبسط أشكال الحياة .. للنبات .. فكيف الحال بالإنسان ؟ .. ألا نعتقد أن الفن يتخذ أبعادا أعمق ملايين المرات عند ذلك المخلوق الذي هو أرق ما وصل إليه تطور الكائنات . ؟ ..

القصة – بالنسبة للفن – هي سلم التطور كله .. هي تقريبا ، أول فن يستجيب له الطفل .. ثم تظل معه في رحلة الحياة يستجيب لها في كل مراحل عمره ، حتى وهو في قمة نضجه .

هذا النوع من الفن الذى يعمل على كافة هذه المستويات ، لابد طبعا أن يتضمن كافة الفنون الأخرى .. اللغة ، والموسيقى ، وإيقاع الحياة ، وتوهم الخيال وتغيير المكونات الداخلية الدقيقة فى الإنسان ، جمالية كانت أو فكرية .
القصة تحتل - فى الفن - المقامات الموسيقية السبعة ، ومن هنا فهى فن دقيق وخطير لم تكشفه البشرية بعد .

وظيفة مساعدة الآخرين :

• • هذا يقودنا إلى سؤال هام أدخلت نفسك فيه دون أن تدري .. كنت تقول إنك أكثر ميلا إلى العزف على العاطفة البشرية ، وأقل حماسا للعقلانية المحضة على أساس أن التأثير على الوجدان يحدث أثرا أعمق من التأثير على العقل .. لكنك فى الفترة الأخيرة أوليت المقال عناية خاصة بحيث جعلته أشبه بالدراسة المركزة ، الأمر الذى شكل - فى رأي - خطرا على إنتاجك الفنى من ناحية ويناقض قولك الأول من ناحية .. فما قولك ؟ ..

ما أن انتهيت من السؤال حتى رأيته يتجههم ويصمت صمتا تاما .. من ميزات فناننا الكبير أن ما فى داخله يتضخ على وجهه فى التروال لحظة .. بعد فترة ليست بالقصيرة خرج عن صمته :

- سؤالك هذا ليس هو الأول .. تلقيت رسائل كثيرة تطالبنى بالكف عن كتابة المقال كيلا أهدر موهبى القصصية والمسرحية .. لكن هناك عدة قضايا فى

هذا الشأن .. القضية الأولى هي أن الكتابة ليست فقط شكلا فنيا .. والكاتب في عصرنا الحديث هو المنبه لقومه .. المقلق .. الموحى .. هو الذى إذا نام الناس صباحا ، وإذا صحوا نام .. إذا انحرفوا يمينا اتجه يسارا . وإذا سددوا فى يساريتهم توسط أو أيمن .. إنه الضابط للحركة البوصلة .. العازف على الناي إذا كان للمحكمة ناي .

القضية الثانية هي أننى لا أكتب بناء على تحديد دقيق لوظيفة فى الحياة .. فلست أعرف لى وظيفة غير محاولة مساعدة الآخرين ليساعدونى .. وحين أرى عقل أمتى هو الغائب ، فلا أفكر لثانية واحدة فى أى شىء سوى أن اعتبر نفسى مجنونا .. تماما كالجنود إجباريا فى القوات المسلحة للدفاع عن الوطن العقل .. أو العقل الوطن .. يجب أن تعرف أن ثمة هجوما رهيبا - وبأشعة ليزر على الأمة العربية لا أعنى الأرض العربية فقط ، وإنما أعنى العقلانية العربية .

عندما يكون عقل أمتى فى خطر ، فلتذهب جميع الأشكال الفنية القصصية - والروائية والمسرحية إلى الجحيم . إن الكتابة ليست هزلا .. وإذا كنا قد ذللناها وأسميناها أدبا أو فنونا جميلة ، فأعتقد أننا فعلنا هذا عن تخلف شديد فى إدراك ، ليس فقط ماهية الفن ودوره فى الحياة ، بل ماهية الحياة ذاتها وقيمتها .. الكتابة عمل خطير .. إنها العقل والوجدان والروح تنسكب على الورق .. وقد أدرك أجدادنا هذا من زمن طويل . وتمكنوا من هزيمتنا فنيا وفكريا ، وسهل عليهم بعد ذلك أن يهزمونا عسكريا .. الهزيمة كانت إنسانيا أولا ، لأن الإنسان هو الذى يقاتل وليس سلاحه .. الجزء المقاتل فى الإنسان هو إرادته ، والكلمة الصادقة هي إرادة الانسان .. عندما أقول « الكلمة » فإنما

أعنيها بمعناها الواسع الشامل لكافة ما يحرك النبضة في الكائن الحي ..

إلى أعتبر نفسي مجتهدا للدفاع عن عقلي وكياني أولا ، لكي أدافع بهما عن عقل بني وطني .. وحين يصل الأمر إلى مرحلة الالتحام بالسلاح الأبيض وأنزل أنا فوق السطح لأكتب قصة أسلى بها المحاربين ، أعتقد أن المسألة تصل عندئذ إلى درجة الخيانة .. أما عن المؤرخين ، فإنهم أحرار إذا اعتبروا ما أفعله هو العبث بعينه لأتني - كما يقولون - أهدر موهبي القصصية والمسرحية فيما يسمونه كتابة المقالات .. ومن يدري .. ربما لن يبق مني - إذا بقي شيء - إلا ما يقال أنني أهدره .

الحرام .. والحلال :

أثناء حديثه كانت عيناه تتوهجان .. ترسلان ذلك البريق الذي لا تجده إلا عند أولئك الذين وصفوهم بأنهم ملأوا الدنيا وشغلوا الناس .. ربما هو يمتاز عن الكثيرين منهم بأن الكلمة عنده مقرونة بالفعل في أكثر الأحيان .. وربما لهذا السبب تجده يركز على الجانب الإيجابي في الصحبة الإنسانية وفي أغلب أعماله الفنية ... وقلت لنفسى ، وأنا أرى توتره ، لأبد من سؤال جديد - وبأقصى سرعة - لنخرج عن جو السؤال السابق :

« سمعتك مرة في إحدى الندوات تقول إن مشكلة « الخطيئة » مشكلة أجنبية غريبة علينا ، ومع ذلك نعالجها في أعمالنا الفنية .. بينما المشكلة التي نقابلها في مجتمعنا هي « الحرام » والفارق دقيق بين الخطيئة والحرام ، ولكنه أساس .. ثم دارت مناقشة جانبية في الندوة نسيت

بعدها أن تقول لنا عن هذا الفارق .. ألا تعتقد أنها فرصة الآن لتكمل مبادئه ١٩ ..

- الخطيئة بشكلها المسيحي تتضمن أن الإنسان كائن خاطئ بطبعه .. وقد جاء الإسلام ليغير هذا المعنى ، ثم طورت المدارس الإسلامية هذا التغيير إلى فكرة « الحرام » .. ومعناها أنه ليس هناك خطيئة أبدية ، ولكن هناك أفعالا حلالا وأفعالا حراما .. وهذا القهم أكثر عدلا بالنسبة للإنسان وأكثر تحريرا لإرادته ..

لكن أغرب ما في الأمر أن الديانة المسيحية - وفقا لتعاليم السيد المسيح عليه السلام - ترفع هذه الخطيئة عن كاهل الإنسان باعتبار أن السيد المسيح قد حمل عن البشر خطاياهم كلها ، بينما ارتدت المذاهب الأوربية المسيحية إلى فكرة أن الإنسان كائن خاطئ أساسا لتستطيع أن تحكم قبضتها على الناس .

١ - الشخصية العربية :

« مادمنا قد تحدثنا عن « البشر » بصفة عامة في مفهومين مختلفين ، فما قولك في سؤال عن « الإنسان العربي » وحده ؟ »

- أي سؤال ؟ ..

« في كتابك القيم « اكتشاف سارة » حللت الشخصية الألمانية والشخصية اليابانية .. قلت إن الأولى تتحكم فيها عقدة الضوق

بينما مركب النقص هو الذى يتحكم فى الثانية .. ترى .. ما أهم مزايا
وعيوب الشخصية العربية فى رأيك ؟ ..

وقف ودار حول المائدة واقترّب من جهاز تليفزيون الكازينو . رفع
الساعة وأدار القرص لمرة واحدة ثم أعاد الساعة إلى مكانها وجاء ليجلس
يحوارى .. أشعل لنفسه سيجارة وقال بصوت هادئ :

... سأغادر الاسكندرية إلى الزقازيق غدا .. إن كنت ستسافر إلى القاهرة
غدا ، تعال معى .

• • • شكرا . سأقضى بضعة أيام بالاسكندرية .. لكنك قلت لى أنك
ستقضى هنا عشرة أيام ؟ ..

— مللت .. لا بد من السفر إلى الزقازيق ، ومنها إلى الريف .

هذا هو السر إذن .. كثرة الأسفار هى التى مكنته من التحرك فى عالم
متسع .. من يراجع أعماله الفنية يدهش لمتنوع هذا العالم وثرائه .. إنه يكتب عن
القرية بنفس القوة التى يكتب بها عن المدينة .. أحيانا تجدد أحداثه تدور فى
« العزبة » الصغيرة وكأنه ولد فيها ، وأحيانا تجدد يتحرك فى مدينة أوروبية وكأنه
من أهلها .. وقطع على أفكارى بقوله :

... الشخصية العربية تختلف عن الشخصيتين الألمانية واليابانية .. هى
شخصية — كما يسمونها فى علم النفس — الاكتئابية المرحّة .. تتردد باستمرار بين
المرح والاكتئاب .. نحن لانحنى الحزن طويلا ولا نحتمل المرح طويلا .. فى
حالة حزن اذا مرحنا ، وفى حالة مرح اذا حزنا .

أهم عيوب الشخصية العربية هو العقل .. نادرا ما تصاب بالجنون ...
تكتسب حقا حين تسوء الظروف .. لكنها لا تنجى .. لا نجد عندنا أحدا يتحرر
مثلا .

هذا العيب نفسه هو الميزة .. نحن شعب عاقل جدا لأنه متوازن .. وهذا هو
السبب الذى جعلنا نعيش كل هذه الآلاف السنين - ونحت أسوأ الظروف -
دون أن تفقد شخصيتنا .. دون أن نتحرر .

• • ما رأيك فى أن نعود إلى الأدب كى يكون ختامها مسكنا ؟ ..
- موافق ..

• • ما الذى ينقص أدبتنا ليصبح أدبا عالميا ؟ ..

- هذا السؤال أجاب عليه زميل وصديق الأستاذ الطيب صالح إجابة
جميلة أوافقه عليها تماما .. العالم ليس هو العالم الكبير الذى يشمل البشرية
كلها .. بل هو الذى يبدأ صغيرا ثم يتسع .. والمفروض فى الأديب أن يخاطب
العالم الصغير .. عالمه .. فإذا نجح فى مخاطبة عالمه فإنه يكون بمثابة من نجح فى
مخاطبة العالم كله ..

وأقول لك شيئا .. إن أهم ما فى الأمر هو الصدق .. هل نحن صادقون حقا
فى مخاطبة عالمنا ؟ إن صدقتنا سنصل إليه .. وإذن .. علينا أن نحاول الوصول
إليه أولا ، ثم نفكر بعد ذلك فى الوصول إلى العالم الكبير .

لقاء حافل مع دورنجات

حين كنت طالب علم أقرأ المراجع الطبية ، وأقرأ أحيانا كتباً لأساتذة الأدب في القرن التاسع عشر كانت صورة أولئك الأساتذة سواء في العلم أو الأدب تأخذ عندي طابعا مبالغاً فيه تماما ، كنت أتصور أن ذلك الرجل العظيم الذي باستطاعته أن يكتب هذا المرجع أو يحيط به ، بل أحيانا يكتشف ويخترع تلك المعلومات لا يمكن أن يكون مثلنا أبداً ، وكنت لأفعل هذا عن تصور رومانسي لإنسان خرافي أو من عالم آخر كتب أو ألف ، ولكن الكاتب أو العالم يعطينا فيما يكتبه خيراً ما عنده ، أو بالأصح معجزته الخاصة التي وصل إليها وحده ، وقياساً على هذا نتصور نحن أن كل شيء فيه ... مثل إنتاجه ... معجزة هو الآخر ومن مجموع تلك المعجزات التي تكون شخصه يتبدى لنا في صورة أسطورية تماماً بل إنني لأذكر أنني بعد أن أصبحت كاتباً وصدر كتابي الأول « أرخص ليالي » كنت مدعوّاً إلى حفل في إحدى السفارات ، ووجدت ضمن المدعوين الدكتور طه حسين يصطحبه سكرتيه الأستاذ فريد شحاته ، وكنت أعرف أن الدكتور طه حسين قد قرأ كتابي وأعجب به تماماً ، وأنه أوصى المرحوم الأستاذ سامي داوود أن يخبرني أنه يريد أن يراني ، وها هو ذا طه حسين أمامي لا تفصلني عنه إلا يوضع

خطوات ، وما علىّ إلا أن أذهب إليه وأسلم عليه وأقول له أسمى ، فلا حرج إذن ولا إحراج ، ولاداعي للوجل ، والرجل هو الذى يطلب لقائى ، ومع هذا لم أستطع أن أخطو خطوة واحدة تجاه الأستاذ العميد الذى قرأت له « الأيام » و « الملعبون فى الأرض » و « أديب » والذى كنت أضحه هو والأستاذ توفيق الحكيم فى برج فى خاص أقول لنفسى إتنى أبداً لن أستطيع بلوغه ، وهكذا مضت الحفلة وغادرتها طه حسين ولم أقابله إلا بعدها بعام حين اصطحبني المرحوم سامى داود بما يشبه الإرغام للقاءه فى فيلته بالزمالك فى ذلك الحين .

تذكرت كل هذا ، وأنا فى طريق للقاء فردريك دورنمات أعظم كاتب مسرحى معاصر - فى رأى المتواضع - ذلك ألى حين دعتنى « البروجيلتسيا » وترجمتها « من أجل سويسرا » وهى الهيئة التى تشرف وتشجع وترعى الأدب والفن السويسريين ، وكان رفيقى فى الرحلة أستاذنا الدكتور لويس عوض ، جعلوا لنا برنامجين مختلفين ، فالدكتور لويس آثر أن يزور المتاحف والمكتبات والأماكن التاريخية ، وأن يعتكف بعيداً عن الخلق يتأمل كل ما قرأ عنه فى تاريخ سويسرا وأماكنها المشهورة حتى الصخرة التى كتب الشاعر الانجليزى بايرون قصيدة مشهورة بجوارها ، بينما كان اهتمامى الأول أن أتعرف على الناس : كتابا وفنانين ، ومسرحيين من مختلف أنحاء سويسرا .

وهكذا افترقنا ...

وفى حفل عشاء صغير أقامه الكاتب السويسرى أدولف موشك وزوجته الكاتبة لزوجتى ولى ، وحضره عدد آخر من الكتاب ، أسرنى ذلك الجو الأسرى البسيط الذى يحيا فيه الكاتبان : زوجة وزوج ، ولم يخل الأمر من مداعبات

أطلقتها عن التناقض الكامن بطبيعته بين الحياة زوجها وزوجة وبين الزمالة في العمل ، فكلاهما كاتب ناجح ، وحين انتهينا من العشاء ورحنا نتحدث جاءت مسيرة « دورنمات » . وهنا وجدت حناجر الكتاب والكاتبات المجلجلة بدا وكأنها ازدردت لقمة كبيرة أوقفت الكلمات في الحلق ، وحين استأنف الحديث استأنف على هيئة كلمات متناثرة عن دورنمات ، فمن قائل : لقد ماتت زوجته التي كان يعبدها وتزوج بأخرى وهو عجوز هكذا ، ومن قائل إن وزنه قد زاد كثيرا وإنه قليل الحركة جدا ، ومن قائل إنه يعاني من السكر ، أخبار محزنة على طول الخط خاصة وقد كنت أتمنى أن ألقاه في هذه الرحلة إلى سويسرا ، ولم أجد بدا من أبوح بأميقي تلك هم ، وجاءت الكلمات تترى تقول : إن دورنمات لا يقابل أحدا ، إنه « سور ستار » الآن ولا يقابل أحدا ، كثيرون من مراسلي الصحف ووكالات الأنباء يحاولون لقاءه ، ولكنه باستمرار يرفض لقد أصبح مغرورا تماما ويوشك غروره أن يقتله في بيته المنعزل في نيوشاتل وابتسمت في سري ، لكأننا في القاهرة أو في أية عاصمة عربية أخرى لارحنا ولاجينا ، إن آراء الكتاب في بعضهم البعض ، وإن اتخذت طابع « الموضوعية » حين تقال علنا ، إلا أنه حين يصبح الأمر مسألة نجمة وآراء تقال في دائرة مغلقة ، فإن كل مستور من الآراء يظهر أو بالأصح كل مستور من الغيرة أو الحقد يطفو على السطح وينطلق به اللسان ، ودورنمات كاتب موهوب جدا بالنسبة لبلد أوروبي صغير كسويسرا لم يعرف عنه إنتاج عباقرة الكتابة أو الموسيقى أو التصوير ، وقد أخذ دورنمات طريقه إلى العالمية بسرعة شديدة ، فهو يكتب بالألمانية ومن السهل ترجمته ، فقد كتب أول مسرحية له اسمها « الأعمى والشهاب » عام ١٩٤٨ ، وبعد عشر سنوات بالضبط كانت مسرحيته

الثانية « زواج مستر ميسيبي » تقدم في برودواي في نيويورك عام ٥٨ ، ناهيك عن مسرحيته المشهورة جدا زيارة السيدة المعجوز التي كتبها عام ٥٦ « وعمره وقتها ٣٥ عاما » وقدمت أيضا في نيويورك وفي كل عواصم الدنيا تقريبا وترجمت إلى العربية ، وقدمت هنا عدة مرات كان آخرها الصيف الماضي وإنتاج دورنمات في المسرح ١٨ مسرحية ، فقد كتب أيضا علماء الطبيعة « وقدمت في مصر من ترجمة الصديق الكبير أنيس منصور » الذي زاره وكتب عنه في الستينات « وروميلوس العظيم عن آخر أباطرة الدولة الرومانية ، وهرقل ينظف إصطبل أوجياس وقرانك الخامس ، وآخر حرب الشتاء في التبت وهكذا كتبت ، وأيضا اقتبس مسرحيات لشكسبير وجوته وغيرهما تسع مسرحيات للآن ، كتبها دورنمات ، ولكنه أصبح بها أستاذ مسرح النصف الثاني من القرن العشرين ، ذلك أن هذا الرجل يتمتع بموهبة القدرة على خلق الأسطورة الحديثة التي يحرك بها الواقع الآسن ويجعل منه فنا عظيما » وسنأتي إلى هذه النقطة في الحوار معه .

ودورنمات كروالي يأتي من الدرجة الثانية من موهبته ككاتب مسرح ، وقد كتب عدة روايات منها القاضي والمحكوم عليه « عام ٥٥ » والشك « ٥٣ » والاغريق يبحث عن الاغريقية « ٥٥ » واللعبة الخطرة « ٥٦ » والالهام « ٥٨ » .

أجل ما بهرنى في دورنمات ككاتب مسرح هو قدرته على اختراع حدود مسرحية معاصرة ، بينما العادة جرت في معظم كتاب المسرح أن يلجأوا إلى الميتولوجيا الاغريقية مثل أوديب وبيجاليون والكثرا والذباب ، يعيدون كتابتها

برؤيا حديثة ومبتكرة ، أما أن « تخترع » أسطورة حديثة تماما ، منتزعة من صميم عصرها ومتناقضاته ، فذلك لابد موهبة من نوع فذ تماما .

ومن هنا يختلف دورنمات عن معاصريه من كتاب المسرح العالميين مثل ارثر ميللر وتينيسى ويليامز وبيكيت ويونسكو وموروچيك وغيرهم ..

ان لكل شيخ طريقته . هذا صحيح . ولكن هذا الشيخ نسيج وحده .



لم يفعل الحديث الذى دار بعد العشاء ، إلا أن ثبط حتى تماما فى لقاء دورنمات مع أنى لم أكن مشغوقا جدا بلقائه ، فقد علمتنى التجربة أن « سماعك بالمعيدى خير من أن تراه » ثم ان خجلت الربى الذى لم يزاوئنى أبدا فعل فعله فخفت أن أطلب من السيدة « زايفل » المسئولة عن زيارتنا موعدا مع دورنمات فتعذر ، ولو بلباقة ، كدأبها مع كل من يطلب من الكتاب الذين يزورون سويسرا - هكذا قال لى الكتاب والكاتبات فى حفلة العشاء -

صرفت النظر كما قلت

ولكن أثناء زيارتنا - زوجتى وأنا - لمنطقة سان موريز ولقائنا بممثل البروهيلفسيا هناك الذى اتضح أنه من الشعب الرومانشى الذى يقطن فى منطقة جبال الألب . والذى له لغة خاصة وأدب خاص وحركة فنية ثقافية خاصة والذى لايتجاوز عدده المليون ، ويعد جولة فى قم جبال الألب اصطحبنا المسئول لزيارة صديقة له وصديق يعيشان فى واد صغير يقع بين جبلين بالقرب

من سان مورتيز ، والوادي صغير جدا والأرض والبيوت فيه غالية الثمن تماما فلا يقل ثمن البيت فيه عن مليون فرنك سويسري مع أنه لا يتعدى أى بيت من بيوت الفلاحين الذين كانوا يقطنون ذلك الوادي من زمن غير بعيد .

دخلنا المنزل ، فهو بيت مثل بيوت الفلاحين في قرانا مصنوع من الخشب ومزود بفرن للتدفئة ولإعداد الطعام ، كل ما في الأمر أن الأسرة لاتنام فوق سطح الفرن كمادتنا في الأرياف ، ولكنها تنام في الحجرة التي تقع أعلى الفرن مباشرة والتي تتكفل حرارة الفرن بتدفئتها طوال الليل والنهار ، وعلى كوب الشاي الذي أعدته ربة البيت ورحنا نرتشفه بينهم بعد الجولة الحافلة في المناطق الجبلية الوعرة ذات الهواء البارد تماما ، عرفها المسئول بنا ، وعرفنا بها ، وذكر لنا أن أخاها يعتبر من أهم الناشرين في اللغة الألمانية بسويسرا ، وهنا ، وفي التو ، قرنت بين الناشر وبين الكاتب وسألنا إن كان قد نشر شيئا لدورنمات فقالت : أجل ، قلت : إذن تعرفين دورنمات ؟

— بالتأكيد ..

أستطيع أن أعرف منك رقم تليفونه ؟

— ماهو ذا ، ولكن ، لماذا ؟

وهنا ذكرت لها رغبتي في لقائه والحديث الذي ثبتت همتي .. إلى آخر القصة .

ولحت التردد على وجهها مخافة أن أطلب منها أن تحدد لي موعدا معه فقلت لها على الفور :

.. لا عليك ياسيدنى .. أنا لن أكلفك بالاتصال به سأقوم أنا بهذا وأجرب
حظى .

وحين عدنا إلى الفندق فى سان مورتيز ، أخرجت الرقم وطلبت ، ورد
على صوت رجل يتحدث بالألماني ، فسألته بالانجليزية :

.. مستر فريدريك دورنمات ؟ !!

.. يا .. يا « نعم بالألمانية »

.. « مواصلا بالانجليزية » أنا أسمى فلان ، وأنا كاتب مسرحى مصرى وأود
لقاءك ليس لحديث صحفى ، ولكن لحوار حول قضايا مسرحية تشغلنى وتشغل
كتاب المسرح المصرى والعربى ، أفهمتنى يامستر دورنمات ؟
.. متى أستطيع أن ألقاك ؟

قال كلاما بالألمانية فتأولت السماعه لمرافقنا الرومانيشى مندوب البروهلفيا
وظل يقول : يا .. يا .. يا ..

وأخيرا نعى السماعه جانبا وأغلق فوهتها .

وقال بالانجليزية طبعاً ، إن مستر دورنمات يرحب بلقائك يوم الثلاثاء القادم
فى منزلة بنيوشاتل ، وهو يترك لك حرية اللقاء على الغداء ١٢ ظهراً أو على
مشروب بعد الظهر فى الثالثة ، فما رأيك ؟

.. الثالثة يوم الثلاثاء إذن ..

وقد كان ...

وكان صجبي شديدا أن تم الأمر بهذه السهولة ..

• • •

قامت مدام زويفل المسئولة عنا بترتيب كل شئ ، آلة تسجيل ، كاميرا ومترجم يجيد الألمانية والانجليزية واللغة العربية حتى كان عليه أن يلتقانا في محطة نيوشاتل للقطارات في الساعة الثانية بعد الظهر .

ومن أعظم الأشياء الموجودة في سويسرا شبكة السكك الحديدية التي تحملك إلى أي بقعة من سويسرا رغم وعورة جبالها وكثرتها وتعدد أنواعها ، نوع لصعود الجبال ونوع للسهول ونوع دولي يحملك إلى أي مكان في أوروبا والأهم من هذا دقتها الشديدة ، وقد كان علينا مرة أن نغادر سان مورتيز ونغير القطار الذاهب إلى لوشيانو في محطة ما لا أذكر اسمها . وكنا وحدنا . وسألت مدام زويفل عبر التليفون ، كيف سأعرف المحطة ، قالت : انظر في ساعتك حين تصبح الساعة وثلاث دقائق استعد للتزول فالقطار يصل إلى المحطة في الساعة وأربع دقائق ، وفعلا ، في الساعة وأربع دقائق كنا نهبط من القطار على رصيف المحطة التي فشلت في تذكر اسمها ، لكأنه نوع من التعرف على المكان بالزمان ، إن صناعة الساعات لم تنبأ في سويسرا عبثا ، وأنا شخصا لدى ساعة سويسرية دقيقة لا أحتاج إليها كثيرا في مصرنا الغالية ، لم أحتجها تماما إلا هناك ، فخطأ في نصف دقيقة قد يكلفك قطارا هاما يفوتك أو موعدا لقيام طائرة .

في الثانية تماما كان المترجم هناك ، بالضبط في بوفيه الدرجة الأولى واقفا على الباب ، ودون أن نتبادل كلمة كنا قد تعارفنا .

كان المطر قد بدأ يتساقط ، وما أن خرجنا من باب المحطة حتى أصبح سيولا ، وكان العثور على تاكسي في هذا الجو مسألة صعبة تماما ، ووجدنا أن غير طريقة هي أن ننتظر مسافرا قادمًا بتاكسي لناخذه ، وأفلحت الطريقة وسألنا السائق عن العنوان ، فأكد أنه يعرفه ، وسار بنا في شوارع خلت من المارة تقريبا إلى أن أصبحنا نسير في شارع مواز لبحيرة نيوشاتل ، وبدأ السائق يعد أرقام البيوت ، وبدأ يبرطم ، فكل الأرقام موجودة إلا رقم منزل دورنمات .. المطر والبرد والشارع المتعرج كالجيل الملاصق له لا تلمح فيه أثرا لإنسان أو حياة ، وتصورت أن السائق سرعان ما يزهق وينفض يده ويعود بنا إلى المحطة حيث كنا ، ولكن يبدو أن الرجل أخذها مسألة نخذ ، ففضى يطرق الأبواب بعضها يفتح له ويحجب بالتأسف ، وبعضها يهز رأسه علامة اللاعلم ويروح السائق ويحيى في الشارع المتعرج الطويل ، وأخيرا جدا يطرق بابا نلمح من خلفه رأسا يهتز بالمعرفة ، ويعود السائق متهللا وكأنه أرشميدس يقول : وجدتها وجدتها ، وبعد دقائق نكون أخيرا أمام باب دورنمات .

فتحت لنا الباب سيدة شابة حسبنا أول الأمر زوجة دورنمات الجديدة ولكن اتضح فيما بعد أنها (شغالة) البيت ، ومن ممرضيق نفدنا إلى حجرة واسعة منخفضة بضع درجات ، وكان دورنمات جالسا إلى مكتبه ، قام وتقدم ناحيتنا مرحبا ، ومسلما .

الرجل في تمام صحته ، قصير القامة ، في الخامسة والستين يبدو نشط الحركة ، ليس سمينا أو زائد الوزن كما قالوا ، ولا يمشي على عكاز كما زعموا أشيب الشعر يضع منظارا ، على وجهه آيات ترحيب صادقة ، ترحيب متواضع أشد ما يكون التواضع .

ولم يكن دورنجات أول كاتب ملأت شهرته الآفاق أقباله ، فمن قبله لقيت سارتر وإيليا أهرنبورج في النمسا ، وارثر ميللروجون إيدابك وسول ييلو من أمريكا ، وكل منهم كنت أحس لديه بكمّ ما من الشعور المغتربة للذات وبالذات ، إلا هذا الرجل الذى بدأ لي شيئا صغيرا طيبا ، فيه من ملامح الطفولة أكثر مما فيه من ملامح الشيخ .

كان حائط بأكملة من حجرتة مصنوعة من الزجاج ويطل من علّ على بحيرة نيوشاتل والجبل المنحدر إليها ، مكان عمل جميل جدا لفنان رسام وكاتب معا .

رحت أنأمل الرجل ، هذا هو دورنجات إذن الذى نخلت أفكاره لُبى وجعلتني أتساءل عن كنه ذلك الكاتب المسرحى الذى (يبتزعج) تلك الأفكار .

- أستاذ دورنجات .. أنا شديد الإعجاب بمسرحك لسبب قد يخالفنى فيه الكثير من نقادك ، فنقادك يشيدون بك لأنك أحللت الصدفة محل القدر الإغريق القديم ، وجعلت التفكير العقلانى فكرة فى أحيان كثيرة موجات من العبية واللامفهومية ، وفى مثل هذا الجو غير المعقول لا يمكن وجود الأبطال ويقولون إنك حطمت النظرة المنمقة المراثية للعالم المتعدين بما أدخلته عليها من النظرة النسبية للحقائق ، وفى مكان البناء السليم المتكامل والقوانين الأخلاقية المطلقة ، فى مكان هذا حلت بيروقراطية الجضم الحديث لتضع رؤيا عينية للكون حيث يستحيل فيه الإنسان ومأساته إلى سخرة (فارس) اجتماعية نقادك يقدرونك لهذا ، ولكنى معجب بك لسبب آخر تماما .

أجاب دورنجات بإبتسامة مأكرة : أى سبب ؟

قلت : لأنك كمسرحي ، خالق لما أسميه الأسطورة الحديثة ، فالواقع كما هو، أنت تعرف وأنا أعرف لا يصلح بذاته كمادة مسرحية ، لابد من حيلة مسرحية يلجأ إليها كاتب المسرح لجعل هذا الواقع إما أن يتقلب رأساً على عقب وإما أن يعتدل إذا كان مقلوباً لنستطيع أن نراه في ضوء جديد تماماً وبرؤيا جديدة تماماً ، فمثلاً في مسرحية زيارة السيدة العجوز أنت تريد أن تتحدث عما يحدثه العامل المادى في النفوس البشرية، وكيف يتسلط عليها ويغيرها ، غيرك كان يلجأ لعرض هذا الموضوع في قالب درامى مهما بلغت درجة إتقانه فسوف يكون مباشراً ، أنت اخترعت قصة السيدة التى غادرت القرية منبوذة من حبيبها والتى عادت إليها بعد أن أصبحت غنية جداً ورصدت مليون دولار لمن يقتل لها حبيبها السابق . هذه (الاختراعة) المسرحية جعلتنا نرى الموضوع بطريقة مسرحية مثلى ، وجعلتنا نراه وكأننا لم نره من قبل مع أننا نراه كل يوم . أردت لقاءك إذن ومناقشتك لأننا في العالم العربى نعانى ككتاب مسرح (وأنا منهم) لخلق هذه الاختراعات المسرحية المصرية والعربية الحديثة لنرى واقعنا وواقع العالم اليوم على ضوءها .

قال : إنه لشيء غريب ، ولكننا فى خلقنا للأسطورة الحديثة ، كما تسميها نجد أنفسنا فى النهاية وقد عدنا إلى أساطير الأقدمين ، إلى الميثولوجيا الإغريقية مثلاً ، إن النظرة الكونية الشاملة الكاملة كانت منذ خمسين عاماً مضت لا يمكن الوصول إليها على وجه الدقة ، ولكننا الآن نستطيع أن نقول إننا نقف على أرضية نظرة كونية ثابتة ، نحن لدينا اليوم فكرة شبه يقينية عن ماهية المادة .

قلت : إننى سعيد بسماع هذا . فأنا أحتاج وأنا أكتب مسرحياتى إلى أن

أقف على أرضية كونية ثابتة ، وحين كنت أكتب مسرحية لى اسمها (الفرافير) احتجت أن أعثر على قانون واحد يشمل كل مادة الكون من أصغر ذراتها والكتروناتها إلى أكبر مجراتها .

قال : وهل وصلت إليه .

قلت : وصلت إلى ما تفضلت وأسميته أنت (شبه اليقين) فبإمعان التفكير وصلت إلى أن المادة في حالة نبض مستمر ، تتجاذب مكوناتها ، من مكونات الذرة ، إلى مكونات المجرة ، وتظل تتجاذب إلى أن تصل إلى ما أسميته المسافة الحرجة لتبدأ أقوى التجاذب تتحول فجأة إلى قوى تنافر منفجر هائل ، وهذا القانون يشمل حتى العلاقات البشرية من تقارب وحب ثم تنافر وتباعد ، ومن العلاقات داخل المجتمعات ، وبين الدول ، وهكذا .

قال : وماذا دفعك للبحث عن ذلك القانون الجديد ، أولم تكفك القوانين الحالية لتفسير السلوك البشرى .

قلت : إن القوانين الحالية لعلم الطبيعة والكيمياء والبيولوجى والانثروبولوجى لم تكن لتسغنى لتفسير العلاقة بين السيد والفرفور (وهنا تكفل المترجم بتلخيص مسرحية الفرافير التى يعرفها ودرسها ، وقد سعدت بهذا لأننى هنا أمام كاتب قد قرأت معظم وأهم أعماله بينما هو بالكاد لايعرف إلا ألى مجرد كاتب مسرحى مصرى فكان ضروريا أن يعرف شيئا عن إنتاجى) .

قال : أنا لا أستطيع أن أناقشك فى تصورك عن هذا القانون الكونى الواحد ولكنى شخصا أومن بقانون واحد آخر هو قانون الصدفة ، إن العالم الذى نحيا

فيه بما يحتويه من بشر ليس له قدر محتم يسير إليه وينتهي بنهايته ، ولهذا نحن
لا يمكن أن تتنبأ بما سيحدث لهذا العالم غدا ، لأن العالم يسير بطريق الصدفة
العشوائية ، ولا يمكن التنبؤ على وجه الدقة بما سوف يحدث ، فالأمر متروك لقانون
الصدفة المحضة .

قلت : هل تعتقد يا أستاذ دورنمات أن المسألة مجرد صدفة ، حتى لو كانت
قانونا .

قال : نعم ، أنا أعتقد أن الحتمية - حتى التاريخية منها - قد استبدلت
بالاحتمالية ، بمعنى أن هناك (احتمال) أن يحدث هذا الشيء أو ذاك .

قلت : ألا يمكن أن تكون الاحتمالية طريقا للحتمية ، أو بالأصح هل من
الممكن أن تؤدي الاحتمالية إلى الحتمية ، (سألت المترجم ، هل سؤال
مفهوم ؟) قال المترجم : لا

قلت : بمعنى آخر الاحتمالية مها كثرت فلها حدود ، فهل يمكن أن تؤدي
الاحتمالية في النهاية إلى الحتمية .

سألته هذا السؤال وفي خلفية تفكيري مايقوله النقاد عنه من أنه نظرا لما
أصابه من إحباط نتيجة لانعدام العدالة الكونية ، وثبوت أن الفلسفات كلها
غير يقينية ، أصبح يؤمن أن البطولة في العالم انحصرت في تمرد الفرد المعزول ضد
النبوءة الميثوس منها ، وعلى هذا الأساس بنى عملا من أعماله الفذة التي
ستحدث عنها فيما بعد وهو (التيه) .

قال : لنعد إلى قانونك الذي تصورته عن الكون (قانون النبض الكوني أو

التجاذب للتنافر) أنا آخذ هذا القانون مأخذا علميا جادا أو بالأصح افتراضا علميا جادا ، فمن المعروف أن الكون الآن في حالة تمدد (حسب نظرية اينشتين) أو ما نسميه مرحلة التنافر ، فهل هناك قوة داخلية فيه تستطيع أن تبدأ مرحلة التجاذب .

أسعدنى أنه عاد ليناقشنى فى افتراضى ويأخذه ذلك المأخذ الجاد .

قلت : إنه لايتحدد - حسب افتراضى - من تلقاء نفسه ، إنه يتحدد لأنه بالضرورة ينجذب أو تتجذب أطرافه إلى أكوان بعيدة أخرى ، بمعنى أن المادة الكونية كلها - من الذرات إلى المجرات - تتجاذب بنفس السرعة ، بل وتقطع فى انجذابها نفس النسبية من المسافة - إلى أن تصل إلى النقطة الحرجة فتنفجر متنافرة ثم تعود لتجاذب وهكذا .

فالقوة أو القانون الأساسى ليس شيئا من خارج الكون ، ولكنه كامن داخله ، التجاذب للتنافر .

قال : إنه احتمال وارد ، بل هو فى الحقيقة تفسيرنا نحن الكتاب أو افتراضاتنا عما يجرى داخل الكون ومادته . إن فكرة الكون نفسها هى تصورنا نحن عن الكون . إن فكرة جاليليو عن الكون كانت صحيحة فى عصرها تماما ، ولكنه لم يكن يملك الأدوات أو الأجهزة التى تمكنه من إثباتها عمليا والتأكد من صحتها ، وصحة أن المادة تدور فى حلقات وحول نفسها ، ونحن الآن عائدون إلى تصورات أخرى عن الكون ، وما الفن إلا تجسيد لتصورنا نحن عن هذا التصور .

قلت : لو أخذنا دورنجات حين بدأ يرسم ويكتب في أوائل بداياته أعوام ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، وأخذنا تصوره للكون ، هل تغير هذا التصور ؟

قال : أنا كنت أدرس الفلسفة ، وكان اكتشافى للفيلسوف نقطة تحول في حياتى فقد كان صاحب نظرية التلقى وصاحب نظرية التفرقة بين التفكير والوجود ، وصاحب رأى القائل بأن الإنسان يفكر في الكون مستعينا بالمفردات البشرية التى يراها ويحيا بها ، وليس بالموجودات الحقيقية في الكون بمعنى آخر هو لا يرى ولا يدرك حقيقة الكون ، ولكنه (يتصوره) على هيئة أشياء يراها من حوله ، وهكذا وصل إلى أن التفكير الرياضى والحسابى هو أنقى أنواع التفكير في الكون ، فهى مجردات وأرقام (والأرقام أيضا مجردات) لا تحتك بالحقيقة من قريب أو بعيد ، إن حقائق الطبيعة لا يمكن تجسيدها إلا بالرموز الرياضية والرياضة فقط ، وهذا في حد ذاته يحدد تلك الحقائق الكونية تحديدا كبيرا .

وواصل دورنجات قائلا : إن الحرية الحقيقية هى في إدراك محدودية القدرة البشرية على فهم الكون .

قلت : نعم فلقد جعلت الصراع في مسرحيتى بين رغبة الإنسان العارمة في التحرر من النظام الكونى (السيد) وبين قدرته المحدودة على الفكاك من أسر هذا النظام نفسه ، إذ لو فك منه تماما لفقد صفته البشرية ونظام وجوده .

قال : ولكن النظام ليس خارج الإنسان ، إنه داخل الإنسان نفسه .

قلت : ولكن كنت أتحدث عن الوجود الإنسانى في هيئة جماعة بشرية

فالإنسان لا يحيا بمفرده ، ولا يوجد مكون من مكونات الكون بمفرده أبدا حتى الذرات توجد في مجتمعات ولا بد من نظام يحكم وجودها الجماعي .
قال : أنت تقول إن الإنسان لا يمكن أن يعيش خارج نظامه الإنساني وأن النظام لا يمكن أن يعيش خارج الإنسان ، فكيف عالجت هذه المعادلة المستحيلة ؟

قلت : بالصراع حول من يكون السيد : النظام : أو الإنسان .
وضحكنا ، طويلا ، وكثيرا .

دورنجات في مصر

قبل أن نستأنف هذا الحوار مع دورنجات والذي سيقول فيه آراء عن الإسلام وعن إسرائيل وعن المسرح والفلسفة والفن وحتى عن نفسه ، قبل هذا أحب أن أقول للقراء خيرا ، إن دورنجات سيزور القاهرة في نوفمبر القادم ، لمبعد الحوار الحافل الذي دار بيننا قلت له :

— هل تحب أن تزور القاهرة ؟

وجدته يتردد .

فقلت إنها ليست دعوة رسمية ، إنها دعوة شخصية مني أنا ، أو بالأصح هي دعوة من مجلس إدارة جمعية كتاب ونقاد ومخرجي المسرح التي أشرف بكوني مسئولاً عنها ونائباً لرئيسها شيخ كتابنا المسرحيين توفيق الحكيم . إنني باسم هؤلاء المسرحيين أدعوك لزيارة القاهرة . قلت له هذا رغم علمي أنه يكره السفر ، ليس فقط إلى خارج سويسرا ، وإنما حتى إلى خارج نيوشاتل ، التي يقيم فيها ، وله سنون لم يسافر أبداً إلى الخارج ، ولكني قلته اعتماداً على نوع من الفراسة الداخلية ، ألتقط وأحس بها الناس أو بما في الناس بطريقة ما زلت لا أعرفها ، تماماً مثلما جاءني فكرة زيارته وأنا عند أخت ذلك الناشر في أحد وديان جبال الألب .

وهأنذا لا ألقاها . - وإن كان مفروضا أن ألقاها - حين قال :

- إنى أتمنى زيارة القاهرة : فعلا ، وكذلك زوجتى - الجديدة طبعا -
فزوجته السابقة التى عاش معها أكثر من ستة وثلاثين عاما والتى رسمها بأكثر من
طريقة والتى كانت معبودته كما يقولون وتوقعوا أن يموت أو على الأقل يتوقف عن
نشاطه الفنى تماما بعد أن ماتت . الذى حدث أنه تزوج بعدها من شابة ألمانية
تعمل مخرجة فى شبكة التليفزيون التى تغطى منطقة أوروبا الناطقة بالألمانية . ألمانيا
والنمسا والجزء الألمانى من سويسرا وبعض أجزاء يوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا .

قلت : سيكون رائعا لو صحبتك زوجتك وأرجو أن نستطيع أن نديرها
برنامجا خاصا باعتبار أنك ستكون مشغولا ببرامج أخرى .

قال : لا حاجة بك لآى تدبير ، فهى تعشق مصر ، وطالما صرحت لى بأنها
تريد أن تصنع فيلما عن مصر ، وأعتقد أنها ستفعل ذلك إذا ذهبنا .

وجهت له هذه الدعوة حق لو كنت سأدفع تكاليفها كلها من جيبى
المتواضع الخاص ، فنحن فى مصر منذ زيارة سارتر للقاهرة بدعوة من مؤسسة
الأهرام ومنذ زيارة جارودى بدعوة من الأهرام أيضا ، لم نحاول أن ندعو كاتباً
أو مفكراً عالمياً لزيارة مصرنا التى يحبها العالم بقدر ما نضيق نحن - أحيانا - بها .

وحقى قلت لنفسى : لو وجدت المبلغ المطلوب كبيراً فسأحاول أن أقنع
الأستاذ إبراهيم نافع بأن يقدم لى قرضاً أو عوناً أو تدفعه النخوة ليقول : بل
الأهرام هو الذى سيتكفل بنفقات الزيارة .

ولكنى حين عدت إلى القاهرة - وطبعا لأسباب لا يجهلها القارئ - لم أشأ أن

أعرض أمر هذه الزيارة على وزارة الثقافة خاصة وهي مشغولة بالماضى تماما وترميمه - قابلت الدكتور ممدوح البلتاجى صدقة فى افتتاح معرض الكتب الفرنسية التى كتبت عن مصر والعرب والمسلمين منذ المصور الوسطى إلى العصر الحاضر - موضوع سأعود إلى الحديث عنه فيما بعد إن شاء الله - وزارات الثقافة والعلاقات الثقافية فى البلاد الأخرى مشغولة تماما بإقامة علاقات ثقافية وثيقة بين بلادها وبين غيرها من البلدان ، وبالذات بلدان العالم التامى ، وفى مقدمتها بطبيعة الحال ، قائدة هذا العالم الثقافى مصر .

لايكاد يمر شهر إلا وثمة معرض أو فرقة موسيقية أو فرقة مسرح أو رقص قادمة من الهند أو كوريا ، وبالذات من فرنسا ، إن الفرنسيين يقومون بنشاط ثقافى هائل فى القاهرة ، معهد آثار ، معهد لغة ، ترجمة كتب مصرية إلى اللغة الفرنسية ، معارض ، دعوات للكتاب لزيارتها والاحتكاك ثقافيا وفنيا بها مهرجانات أفلام ، مؤتمرات كان آخرها مؤتمرا للعلاقات المصرية الفرنسية مؤتمر ساحل ، كان على رأس المشتركين فيه المفكر الفرنسى العظيم ، مكسيم رودنسون ، ذلك أن العلاقات الثقافية لم تعد فى عالم اليوم ترفا ، أو دعاية إنما هى الروابط الحقيقية التى تجلب الشعوب إلى حضارات الشعوب ، وبالتالى إلى فهمها والتعاطف مع سياستها وخطواتها إلى التقدم ، ومثل الفرنسيين هناك معهد جوة بنشاطه الهائل ، ومعهد ليوناردو دافنشى الإيطالى والمعهد البريطانى ينفق بسخاء على تعليم المصريين اللغة الانجليزية والثقافة الانجليزية ناهيك عن النشاط الثقافى الذى تقوم به السفارة الأمريكية والجامعة الأمريكية ، وكان تنافس هائل قائم بينها لخلق لب المصريين ثقافيا وفنيا ، وهذا هو فى رأى التنافس الوحيد المفيد لنا تماما . وقد كان مفروضا أن تقوم مصر - أقصد الوزارات

والإدارات الثقافية الكثيرة المبعثرة بين وزارة الثقافة وإدارة العلاقات الثقافية بها ، وإدارة العلاقات الثقافية بوزارة الخارجية ، والأخرى التي بوزارة التربية والتعليم أو التعليم العالي .. لا أعرف ، كان مفروضا أن توجد هذه كلها في مؤسسة ثقافية واحدة للعلاقات الخارجية وللثقافة الداخلية أيضا ، كهيئة « البروهيلفيسا » السويسرية أو غيرها ، ولكن تقول « لمن » ؟ المهم ، قابلت الدكتور ممدوح البلتاجي وذكرت له عرضا عزمي على دعوة دورنيات وقبوله الدعوة فوجدته بحماس منقطع النظير يصّر على أن تقوم هيئة الاستعلامات باستضافة الرجل الكبير ، وبمشاورات مع السيد صفوت الشريف ووزير الإعلام تم الاتفاق على برنامج كامل للزيارة ، وحتى حين ذكرت الفيلم الذي تريد زوجة دورنيات عمله عن مصر لعرضه في الشبكة الألمانية الأوروبية .

قال : إن إمكانيات الاستعلامات كلها ستسخر من أجل نجاح العمل .

وهكذا أرسلت هيئة الاستعلامات دعوة رسمية - عن طريق السفارة السويسرية في القاهرة - إلى دورنيات بها برنامج مفصل واتفاق مع الثقافة الجماهيرية على عرض مسرحية لدورنيات مما سبق عرضه له في القاهرة ، ولست أدري لم الثقافة الجماهيرية ؟ ولماذا لا يكون المسرح القومي الأب هو الذي يقدمها ؟ ونحدد للزيارة بالاتفاق مع دورنيات نوفمبر القادم إن شاء الله .

هذا هو الخبر .

ونعود الآن إلى ما كنا فيه في الأسبوع الماضي ونتذكر الحوار حتى نحيط بالموضوع .

قال : إن الحرية الحقيقية هي في إدراك محدودية القدرة البشرية على فهم الكون .

قلت : بالضبط ، ففي مفهومى أن الصراع الحقيقى هو بين رغبة الإنسان العارمة في التحرر من أى نظام « بما فيه النظام الكوفى نفسه » وبين قدرته المحدودة على الفكاك من أسر هذا النظام إذ لو فك منه تماما لفقد صفته البشرية ونظام وجوده كإنسان .

قال : ولكن النظام في رأى ليس خارج الإنسان . إنه داخل الإنسان نفسه .

قلت : ولكنى هنا أتحدث عن الإنسان ليس كفرد ، وإنما كمجموعة إنسانية كمجتمع . فالإنسان لا يحيا بمفرده ، ولا يوجد مكون من مكونات الكون بمفرده أبدا . حتى الذرات توجد في مجتمعات ولا بد من نظام يحكم وجودها الجماعى فالأصل في وجود أى شىء هو وجوده الجماعى .

قال : أنت تقول إن الإنسان لا يمكن أن يعيش خارج نظامه الإنسانى وأن النظام لا يمكن أن يعيش خارج الإنسان . فكيف عاجلت هذه المعادلة المستحيلة ؟

قلت : بالصراع حول من يكون السيد : النظام أو الإنسان ، وضحكك وضحكك ولكنى أردفت : إننى اعتبر أن الإنسان إنسان بقدر تمرده على نظام وجوده وبقدر قوة تمرده تكون قوته كإنسان ، صحيح إنه تمرد ميثوس منه ، إلا أن الاستسلام الكامل للنظام ، لأى نظام موجود ، هو الاستكانة ، والسكون هو الموت

قال : (وكأننا بغير مجرى الحديث) رغم أن أرسطو يقول إن الإنسان كائن
سياسي ، الا أنني أعتقد إن الإنسان كائن (ذكرى - أنثوى) وأنا أرى أنك لم
تحدث عن الرجل والمرأة باعتبارهما النظام الأساسي للمجتمع البشري .

قلت : لو كان الرجل والمرأة وحدهما على سطح الكرة الأرضية لأصبح هذا هو
النظام الإنساني ، ولكنها لم يوجد هكذا بمفردهما إلا في قصة آدم وحواء ، هما
موجودان باستمرار داخل مجتمعات مثلها مثل أدق الكائنات .

قال : ولكن هذا كما قلت لك مجرد تصورنا نحن لوجود المادة في هذه
المرحلة من إدراكنا العلمي ، ولهذا فأنا أفضل النظرة الفلسفية لأنها تقوم على
افتراض منطق للوجود ، وهي في نفس الوقت ليست حقيقة علمية ، إنها خيال
علمي واسع مثلها مثل الروايات والمسرحيات ، مجرد افتراضات وليست حقيقة
علمية يمكننا إثباتها بالميكروسكوب أو التليسكوب .

قلت : أ معنى هذا أنك لا تعتقد أن هناك حقيقة موضوعية ، حقيقة ، موجودة
خارجنا ؟

قال : هناك حقيقة - هذا لاشك فيه - ولكننا لا ندرك إلا أجزاء من تلك
الحقيقة . أى تلك الأجزاء ندركها ، هذا هو السؤال . بل إنه مهما كان تفكيرنا
حتى لو كان تفكيراً عبثياً فنحن بالضرورة نمسك بجزء ولو ضئيلاً من الحقيقة
بالضبط كما لو كنا نمسك ببطارية كشافة نجول بها في أنحاء غرفة مظلمة فلا نرى
في المرة الواحدة إلا أجزاء من محتويات الغرفة .

قلت : أو كما يقولون عن النملة حين لا يمكنها أبداً أن ترى الفيل كله ، إنها ترى

نشوءات وأشياء بارزة وهضبات ، إنما لا يمكن أن تدرك - أوحى تخيل إذا كان باستطاعتها أن تتخيل - أن هذه كلها تشكل كائنا هائل الحجم حيا اسمه الفيل .

ولهذا دعنى أسالك يا أستاذ دورنمات سؤالا سوف يبدو كأسئلة اللقاءات الصحفية : ألا تعتقد أن الإنسان ، كتلك النملة كما قلنا ، نكتسب كل يوم بتكنولوجياها واكتشافاتها وإدراكاتها المتقدمة قدرات أكثر بكثير من حجمها الصغير، بحيث أنه من الممكن لهذه النملة أن تكبر تماما ويكبر خيالها وتكبر عيونها حتى تصل إلى درجة تستطيع أن ترى الفيل فيلا فعلا .

قال : يمكن أن تكبر النملة فعلا وتكبر حواسها كما قلت . ولكن الفيل أيضا لن يظل كما هو ، إنه هو الآخر لن يظل نفس الفيل ، سيظل يكبر ويكبر .

قلت : فى سرى وله أيضا . هكذا يجيب الأستاذ المسرحى دورنمات ، وأضفت لنفسي : لابد أن جزءا كبيرا من موهبة الكاتب المسرحى أن يعرف كيف يسأل السؤال الصحيح ويعرف أيضا كيف يجيب - حتى على نفسه - الإجابة الصحيحة .

ولكنى كنت قد بدأت أتبين شيئا من ملامح ذلك الكاتب الداخلية ، فهو قد درس الفلسفة وعشقها ، وأنا قد درست العلم وعشقتة ، وصحيح أن الاثنين طريقان للحقيقة مختلفان تماما ولا يتفقان إلا على النهاية الواحدة ، ولكنى - هكذا قلت لنفسي - أفضل طريق العلم ، ومن قبيل حب الاستطلاع حاولت بمجدية خطيرة أن أدرس الفلسفة فلم يقنعنى أيها بالمرّة . أجل بدأت أتعرف على الكاتب الداخلى فيه ، ومن لمعات عينيه بدأت أنا الآخر ألمح علامات تعرفه على .

قلت : كما قلت لك يا أستاذ دورنجات لقد قرأت بعض آراء المتقاد عن مسرحك ، ولكنى أنا شخصيا أعتقد أن أحدا منهم لم يكتشف خاصيتك الأصلية وهى قدرتك عن طريقته فى اختراع الفانتازيا والأسطورة العصرية لاختراق عالمنا الخالى بطريقة تعريه تماما . فهل أنت معى فى هذا ؟ وهل نستطيع أن نسمى مسرحك الفانتازيا « الخيالية » الحديثة .

قال : إن الفانتازيا جزء لا يتجزأ من التركيب « العقلانى » للإنسان ، إن الخيال فى معظمه منطقي أيضا . إن الرياضة هى المعادل المتخيل الموجود بالمنطق ، ومع هذا فالرياضة أيضا فانتازيا لأنها تخيل للأشياء على هيئة أرقام أو رموز ، إنك فى الكتابة تحتاج إلى اكتشاف الرؤية المتخيلة الأولية سواء أكانت رؤية عظمى أو غير عظمى ، ولكنها رؤية جديدة مختلفة . بعد هذا الكشف الأول تصبح عملية الكتابة للمسرح وكأنها لعبة شطرنج محسوبة خطواتها . ففى مسرحية مثل أوديب نجد الرؤية العظمى تهيئ عليه على هيئة نبوءة من آلهة الأولمب ، تقول له إنه سيقتل أباه ويتزوج أمه مثلا . ويريد أوديب أن يتجنب هذه النبوءة أو الرؤية فيتجنبها بواسطة خطوات منطقية محسوبة مسرحيا أو تراجيديا ، كما تحب أن تسميها ، ثم نجد أننا قد وصلنا مع أوديب إلى نقطة لا تخضع للحساب ، لماذا يذهب إلى تلك المدينة « طيبة » التى فيها أمه وأبوه على وجه التحديد ، هذه المسألة تحدث صدفة إذ هنا لابد أن يعمل قانون الصدفة .

قلت : ولماذا لا نسميه قانون القدر أو الحتم .

قال : لأنه كان من الممكن ببساطة أن يذهب إلى مدينة أخرى . حتى لو أجريت عليه قوانين الحتمية كما تسميها ، كان من الممكن أن يختار أقرب مدينة

أو أجمل مدينة أو أشهر مدينة ، أما أن يختار « طيبة » بالذات فهذا أمر لا يمكن أن تحكمه الا الصدفة والصدفة وحدها .

قالت : إنه أمر في رأي لم يحكمه قانون الصدفة ، ولكن حكمته إرادة المؤلف المسرحي الإغريق الذي كتب أوديب الأولى .

قال : إن هذا الكاتب أيضا لم يكن يحكم نفسه وهو « يؤلف » هذه الصدفة . قلت : إذن أنت ممي أن هناك قوة أو دافعا أكبر من الصدفة هو الذي جعله يختار هذا الاختيار .

قال : ولكنه اختيار يفرضه العمل الفني المسرحي .

قلت : ولكن الفن المسرحي ليس في حد ذاته قوة تستطيع أن تفرض قوانينها أو مسارها .

قال : في الحقيقة أننا نحن الكتاب لانعرف القوانين التي تحكم خلقنا للشخصيات والأحداث .

قلت : والمصادفات .

قال : والمصادفات .

قلت : ماذا عنك أنت ، ألم تحاول أن تتعرف على طريقتك التي بواسطتها تختار الأشخاص والأحداث والمصادفات .

قال : سأقول لك شيئا عن مسرحي « علماء الطبيعة » (وهي مسرحية في مفهومها العام جدا تقول إن بعض علماء الطبيعة الألمان ادعوا الجنون ولجأوا إلى

مصحة أمراض عقلية خوفاً من أن تنتزع منهم المعلومات عن القنبلة الذرية ويستعملها هتلر في إبادة الجنس غير الآري كله) استطرد قائلا : إن العلماء الأمريكيان وصلوا مثلاً إلى اكتشاف القنبلة الذرية لأنهم كانوا يعتقدون أن العلماء الألمان سيسبقونهم إلى اكتشافها ، هكذا كان اينشتين الذي كان قد هاجر إلى أمريكا وأبو القنبلة الذرية أوبنهايمر وغيرهما . وصحيح كان هناك تجمع كبير من علماء الطبيعة النووية الألمان في ألمانيا ، ولكنهم لم يكن في نيّتهم أن ينتجوا قنبلة ذرية أبداً ، وأن هتلر لم يكن يحفل كثيراً بجهود العلماء في الحرب ، وكان يسميهم « اليهود البيض » لأنهم كانوا في معظمهم من تلاميذ وأتباع اينشتين اليهودي .

في مسرحيتي « علماء الطبيعة » يلجأ أحد أبطالها لمصحة الأمراض العقلية لأنه يعرف خطورة المعلومات التي اكتشفها ووصل إليها ، وماذا يمكن أن يصنع بها هتلر وعصابته النازية ، لقد تجنب ما أراد تجنبه باللجوء إلى ادعاء الجنون ودخول المصحة . ولكنه في المصحة يقع بين يدي طيبة المصحة المتحمسة للنظام بنفس الطريقة التي يقع فيها أوديب « بالصدفة » في يد أمه « طيبة » وهذا هو ما يمكن أن نسميه « بالقدرة » الذي لا يمكن للإنسان أن يتجنبه .

قلت : يسعني هذا الحديث تماماً يا أستاذ دورنجات ، فقد كنت أرى إنتاجك وأنا أقرؤه وأشاهده . مجرد نصوص مسرحية رائعة أرى واجهتها الخارجية فقط ، أما الآن فأنا أرى دورنيات الكاتب ، دورنيات الداخلى وهو يعمل وكيف يبدع فكرته ، أراه حتى وهو يحرك أبطاله بطريقة ميكانيكية رياضية محسوبة مقدما كلعبة الشطرنج ، ولكن تسمح لي بامسرة دورنيات أن أختلف معك فالأبطال ليسوا أشياء تخضع تماماً لقوانين الرياضة والحساب ، إنى أعتقد أنك

تقلل من قيمة أبطالك بهذا الحديث . إلى أراهم كائنات حية نابضة ، أكثر حياة ربما من البشر العاديين ، وهذا هو بالضبط المسرح ، أننا لانسمى الشخصية المسرحية « بطلا » عبثا ، إنه بطل لأنه من المحتم قطعا أن يكون غير عادى حتى لو كان رجل شارع ، أو على الأقل تكون عاديته غير عادية تماما .

قال : هذا طبعى جدا ، إن الأبطال المسرحيين مجرد نظريات على الورق تتحول إلى كائنات حية على المسرح . وهذا عمل كاتب المسرح .

قلت : أم عمل المخرج ؟

قال : بما يشبه الاستنكار ، أرجوك لا تذكرنى بالنجوم والمخرجين ، إن تدهور المسرح الألماني الحالى سببه ارتفاع تكاليف الإنتاج المسرحى من ناحية ، ومن ناحية أهم هؤلاء المخرجون النجوم فكل مخرج منهم يريد ان يكون هو « نجم » العرض المسرحى ، وأن يجلس الجمهور رغم عدم ظهوره أنه هو النجم ، وهذا بالطبع لا يحدث إلا على حساب المسرحية والممثلين .

إلى أقصد أن أقول إن النص المسرحى يبدو كالنظرية على الورق ، ولكن الكاتب المسرحى الحقيقى هو الذى يكتب بتصور أنه هو الذى سيخرج المسرحية وهكذا ينبض النص بالحياة على المسرح .

قلت : بمناسبة (النبض بالحياة) لاحظ يا أستاذ دورنيات أن العلاقة بين الرجل والمرأة فى مسرحك لاتحتل أهمية كبيرة فى مؤلفاتك رغم ما ذكرته لى آنفا من أن الرجل والمرأة هما أساس النظام البشرى .

قال : ذلك لأن الموضوعات (التيمات) التى أتعامل معها لاتحتل فيها قضية

العلاقة بين الرجل والمرأة مكانا هاما . ولكن هناك أعمالا لي تحتل فيها هذه العلاقة مكانا بارزا ، ولكنى (وكأنا بعد تفكير) معك أن العلاقة بين المرأة والرجل ليست في المحل الأول من اهتماماتى .

قلت : لماذا ؟

قال : لأنها ليست موضوعى الرئيسى ، أنا لا أعانى من مشكلة فى علاقتى كرجل بالمرأة . لقد تزوجت لمدة ٣٦ عاما وماتت زوجتى الأولى ، وتزوجت مرة أخرى .

قلت : سمعت عن قصة حبك العظيمة تلك .

قال : أى قصة حب . الأولى أو الثانية ؟

ووقعت فى حيرة فقد ذكر فى الكتاب السويسريون ساعهم الله أنه كان يكاد يعيد ويكتب من أجل زوجته الأولى ، أما الثانية فلم يأت لها ذكر بالمرّة إلا أنها أصغر منه عمرا كثيرا . وها هو الرجل يؤكد أن القصة الثانية احتلت مكانة قصة استغرقت ستة وثلاثين عاما فى بحر عامين أو أقل .

قلت : تقول يا أستاذ دورنمات أنك لانتهم بعلاقة المرأة بالرجل لأنك رجل سعيد فى حبك وفى زواجك ، أمعى هذا ألا نكتب إلّا عن المواضيع التى لاتسعدنا .

قال : وهل كتب كاتب عن علاقة حب سعيدة ، إننا لانكتب عن العلاقة بين الرجل والمرأة إلا إذا كانت مأساة . وأنا لا أخترع مآسى لا أحسها . وليست علاقة الرجل بالمرأة مشكلتى .

قلت : إذن ماهى مشكلتك يا أستاذ دورنمات .

قال : مشكلتى أننا نعيش فى عالم جميل جدا ، أو بالأصح ممكن أن يكون جميلا جدا ، ولكنه فى حقيقته قبيح جدا جدا .

قلت : (وأنا أتلفت وأرى المنظر من حجرة مكتبه ومرصه لوحة عبقرية تظل على بحيرة ، كأنها من بحيرات اللجنة والبيت والمدينة والجبل وكل شىء جميل جدا) أنا لا أرى عليك هذا قبيحا أبدا يا أستاذ دورنمات ، فكيف تحس قبح العالم الخارجى وأنت هنا فى كل هذا الجمال .

قال : (ضاحكا) فى الحقيقة أنا كنت أتحدث عن قبح الأفكار السائدة فى عالمنا . إن دنيانا الحاضرة هى مصحة كبرى للأمراض العقلية فى نظرى ، إن مسرحيتى الجديدة (مثلها مثل علماء الطبيعة) تدور أيضا فى مصحة أمراض عقلية حيث يقوم كل مريض عقلى بتقمص شخصية تاريخية ما داخل المصحة فأحدهم يعيش كنابليون ويتصرف ويفكر مثله ، وهناك مريضة تتوهم أنها جان دارك ، وتندمج إلى درجة أن تحس أنها مثل (جوديت) التى ورد ذكرها فى الأساطير وتحاول أن تعالج نابليون من تقمصه بالنوم معه كما فعلت جوديت . وهناك مريضان يتقمصان شخصية ماركس ، أحدهما ماركس كما يجب أن يراه الروس والآخر ماركس فوضوى ، وهناك ماركس ثالث لا يظهر أبدا وهو الوحيد الذى قرأ رأس المال فى (المراكسة) الثلاثة .

قلت : لقد حاولت قراءة رأس المال عدة مرات ، ولكنى كنت أتوقف فاشلا .

قال : حتى لينين نفسه لم يقرأه كله ، بل أعتقد أن ماركس نفسه لم يكتبه كله ولكن (المجلز) ساعده فى كتابته . ومن المضحك أنهم قد وجدوا أخيرا خطأيا

أرسله الناشر الذى كان قد تعاقد مع ماركس على نشر كتاب رأس المال وتأخر ماركس فى تسليم أصول الكتاب وخطاب ينذره فيه الناشر بأنه إذا لم ينته من الكتاب فى بحر شهر فسيجهده إلى غيره بكتابته .

قلت : وتصور لو كان أحد غير ماركس كتب رأس المال . كان الأمر يصبح مسرحية لدوريات أليس كذلك ، ولكن معنى هذا أنك درست الماركسية يا أستاذ دوريات .

قال : لقد قرأت كثيرا لماركس .

قلت : . ودخلت مصحة نفسية (وضحكت) .

قال : ولماذا تضحك . فعلا دخلتها . توجد مصحة أمراض نفسية قريبة جدا من هنا ومديرها صديق ، وكثيرا ما أذهب إلى هناك ، وهى مصحة قديمة يرجع تاريخها إلى الوقت الذى كانت فيه هذه المنطقة تتبع بروسيا ، ولقد دخلها كثير من الكتاب الأوروبيين المشهورين مثل (هيرمان هسه) و(كونراد ماير) و(لويدس) . ومن المضحك أن بيتر بروك (المخرج الانجليزى المشهور أو بالأصح أشهر مخرج فى تاريخ المسرح الانجليزى) حين ذهب معى لتتفقد المصحة تمهيدا لإخراج مسرحية علماء الطبيعة على المسرح ، كانت مساعدة مدير المصحة لها (قنب) وكانت عالمة طبيعة ، وحين قدمتها إلى بيتر بروك قائلا : هذه هى عالمة الطبيعة ، كادت تجن من الفرحة لأنها ظنت أنها ستمثل الدور فى المسرحية .

• • •

لاحظ دورنيات أنى كثير التطلع - وهو يتحدث إلى المترجم بالألمانية - إلى اللوحات التى تكاد تملأ جدران المرمم ، وكم كان بودى أن أتحدث عن دورنمات الرسام ، فهو لا يقل موهبة عن دورنمات المسرحى أو القصصى غير أنه بدلا من اختراع الأسطورة الحديثة فى المسرح تموج رسوماته بالأساطير المستوحاة من التوراة والإنجيل ، فقد كان أبوه قسبا بروتستنتيا ، وأمه مدرسة فى مدارس الأحد التى تتبع الكنيسة ، وطفولته مليئة بهذه المتيولوجيا التوراتية إلى درجة التشبع ، واللوحة الموجودة هنا ، هى واحدة من أكثر من مائتى لوحة صدرت فى كتاب عن دورنمات الرسام ، كتاب غالى التكاليف تماما إلى درجة أنه لم يطبع منه إلا مائتان وخمسون نسخة فقط فى العالم كله ، وكان كريما فأهدانى فى نهاية الزيارة النسخة رقم ٥٩ من هذا الكتاب المرقوم .

لاحظ كثرة طلعى فقطعنا الحوار ، وقام يربنى بعض لوحاته ويربى كيف يرسم ، فكتبه واسع جدا ، منخفض بحيث يصلح للكتابة وللرسم ، وعلى جانبه الأيمن دائما ورقة بيضاء (٣٥ × ٢٥ سم) معدة لكى يبدأ فجأة ، ربما فى وسط كتابته ، يرسم ، ويتأمل مرسومه ويمزقه ويعود فيرسم .

ليت المساحة وصبر القارئ يسمحان بحديث أطول عن هذا الفنان الغنى الغريب ، ولكن مرة أخرى أقول ، (ما باليد حيلة) .

• • •

عدنا للجلوس وشرب الشاي والنسكافيه ، وقلت لنفسي أن الألوان لهاكمة الأستاذ دورنيات .

قلت : هل ممكن أن أسالك بعض الأسئلة المهرجة . (لحت الترحيب الكامل في ملاحظه) ماذا فعلت أنت ككاتب من العالم الأول لعالمنا الثالث كيف ترانا أنت أيها المواطن في العالم الأول .

قال : أنا حقيقة مواطن في دولة أوروبية، ولكنى دائم التبع لما يحدث في عالمكم ، أنا أعرف الكثير عن أمريكا اللاتينية وأفريقيا والشرق الأوسط ، حين كنت في أمريكا صدمت تماما بما رأيته في مستوطنات الهنود الحمر ، ولدرجات الفقر غير الإنساني التي يعيشها الهندي الأمريكى هناك . وقد جعلتنى تلك التجربة أغبر كثيرا من أفكارى حول التقدم ومفهوم الحضارة ودور أوروبا وأمريكا ، أنا لم أقرأ كثيرا في تاريخ الشعوب الإسلامية والإسلام، ولكنى شديد الإعجاب بالحضارة الإسلامية في العصور الوسيطة ، وما استحدثه العرب والمسلمون من اكتشافات في علوم كالرياضة والفلسفة إلى درجة أن كثيرين من الأكاديميين الأوروبيين كانوا يعرفون العربية ويدرسونها ويتعلمون منها منطق ارسطو وفيثاغورس وافلاطون دون أن يلموا بالاغريقية نفسها، ولقد كان الامبراطور الألماني فردريك الثاني شديد الاهتمام بالدارسين للغة العربية والمستشرقين ، وكثير من التراث الاغريقى وصل إلى أوروبا عن طريق ترجمته من اللغة العربية، وليس الاغريقية . أجل ، في ذلك الوقت (حوالى القرن الحادى عشر الميلادى) كانت النصوص الاغريقية تقرأ في أوروبا في ترجماتها العربية وليس الاغريقية .

قلت : إننى سعيد أن أسمع هذا منك .

قال : إننى أعرف أن أوروبا أحدثت امتدادات حضارية وثقافية داخل عالمكم

والعالم أجمع ، ولكنى أعرف أن تأثير الفكر الإسلامى والعربى كان قويا على أوروبا أيضا إلى درجة أن أثر فى تفكير الفيلسوف العظيم سبينوزا نفسه ، ذلك الذى وصل إلى أن الله (فى كل الأديان) مبدأ واحد موجود فى كل زمان ومكان ، لقد تأثرت بتفكير سبينوزا تماما فقد كان يهوديا ، ولكنه ترك اليهودية وحوكم من أجل هذا ، ولكنه لم يصبح مسيحيا أيضا ونبتذ العالم وعاش فى قرية هولندية وعمل كصانع نظارات لياكل عيشه بعرق جبينه (إذ كان هذا هو المبدأ الذى وصل إليه) بل إنه استغل قدرته العلمية واستطاع أن يحسب كم نظارة عليه أن يصنعها فى اليوم لتكفى عيشه ويتبقى جزء يكفى لجنازته حين يموت .

قلت : (ضاحكا من حكاية الحساب الدقيق للنقود هذا ، خاصة السويسريين منذ قديم الزمان) لقد كان سويسريا تماما فى هذا !

قال : ولكن المسألة بالنسبة إليه كانت أكبر من مجرد القدرة على الحساب والتدبير ، كان هذا يعنى لديه حرية الإنسان من كل قيد حتى قيد الوظيفة وأكل العيش ، قد تستغرب ، ولكنى أعتقد أن هذا النوع من التفكير الذى وصل إليه سبينوزا كان هو الذى أدى فى النهاية إلى ظهور اينشتين والنسبية ، لقد بنى اينشتين نظريته النسبية مستفيدا من نظرية الكم التى اكتشفها ماكس بلانك ونيل بوهر ، ونظرية الكم تعتمد على قانون الاحتمالات ، أو قانون الصدفة وكان اينشتين يعارض هذا تماما باعتبار أنه يلقى فكرة الخالق الأول : الله .

قلت : اسمح لى : أنا لم أدرس نظرية الكم أو النسبية دراسة أكاديمية ، ولكنى على الأقل أعرف أن نظرية الكم تؤكد أن مكونات المادة وعلى رأسها

الالكترون تدور في مسارات (حتمية) لا تتغير إلا بفعل قوى (حتمية) من خارج الذرة أو حتى لو افترضنا من داخلها ، فأى دخل للصدفة هنا .
قال : إذا كانت ترجحك كلمة الصدفة فسمها الاحتمالات .

قلت : أعتقد أننا لم نتفق حول هذه النقطة ، فأنت تفكر كعالم رياضى
فيلسوف ، يعجبك سبينوزا وكانت والفلاسفة الرياضيون ، أنا أفكر بمنطق آخر
تماما ، منطلق بيولوجى حيوى ، أبسطه أن أقول لك إن وجود موهبة مثل موهبة
دورنيات يكسر حتما قانون الاحتمالات أو الصدفة إذ هو يخضع بالضرورة
لعوامل ، أو لقوانين أعمق بكثير من قوانين الاحتمالات ، قوانين حين تكتشفها
البشرية ستنظر إلى قانون الصدفة وقانون الاحتمالات كما ننظر نحن الآن إلى
جدول الضرب بالمقارنة إلى إمكانيات الحاسب الالكترونى غير المعقولة ، فلندع
هذا الموضوع جانبا إذن ، فنحن على رمال شاطئ المحيط العلمى ، مجرد رمال
الشاطئ ، وأمامنا الأبعد والأرحب والأعمق بكثير جدا مما عرفنا أو سنعرف .
قال : إذن عم سوف نتحدث . عن التصوف مثلا .

قلت : ولماذا لا نتحدث عن اسرائيل وزيارتك لها وكتابك عنها .

قال : فعلا هذا موضوع أريد أن أتحدث فيه ، إنك لم تقرأ كتابى عن
اسرائيل ، ولو كنت قد قرأته لعرفت أن أملى نجاحا تماما فى اسرائيل بعد
زيارتها . لقد تغيرت اسرائيل كثيرا ، كنت أظن فى مبدأ الأمر حين قامت اسرائيل
أنها ستصبح دولة أذكىاء قد حملوا معهم الحضارة الأوروبية وسيستولون نشرها
فى الشرق ، ولم أكن أتصور أن يتحول هؤلاء القوم الذين عانوا من الاضطهاد
إلى دولة كالمؤسسة العسكرية أو ما يمكن أن نسميه (ايران اليهودية) دولة

عسكرية تحتل وتبيد وتقتل . والخطأ القاتل الذي وقعت فيه اسرائيل كان نتيجة لانتصاراتها السهلة على بلاد عربية كانت خارجة لتوها من تحت وطأة الاستعمار . ان اسرائيل تقول إنها دولة ديمقراطية ومن المعروف أن الديمقراطية هي التمثيل الصحيح لفئات الشعب ، فهل الفلسطينيون المقيمون في اسرائيل ممثلون في الحكومة والكنيست الاسرائيلي بنفس النسبة (تقريبا ٢٠١) .

إنني اعتقد أن هناك مكانا للدولتين الاسرائيلية والفلسطينية ، وكان يمكن للدولتين أن تقيا معا تجربة جديدة في بابها ، دولة علمانية واحدة فيها العرب وفيها اليهود .

قلت : أتعرف يا أستاذ دورنجات أن هذا هو بالضبط المطلوب الأساسي لمنظمة التحرير الفلسطينية التي تسميها الحكومة الإسرائيلية منظمة إرهابية لابد من إبادةها .

قال : هذا ناتج من خوف اسرائيل من المنظمة . إن الجانبين أصبحا الآن يخافان بعضهما إلى درجة استحالة قيام دولة واحدة تحتويهما .

قلت : ومن المسئول في رأيك عن هذا الخوف المتبادل ؟

قال : لقد كان العرب واليهود يقيمون معا منذ نهاية القرن الماضي في سلام وتعاون حتى أيام الاحتلال التركي المسلم . وكان منطلق اليهود في إيجاد دولة اسرائيلية أن اسرائيل كانت أرضهم أيام الاحتلال الروماني وأنهم حاربوا الرومان ثلاث حروب كبرى وحين حاقبت بهم الهزيمة تفرقوا في العالم شتاتا .

قلت : ولكن العرب أيضا حاربوا الرومان في العصر الاسلامي الأول .

حاربوهم بفساوة ، وحرروا مايسمى الآن بالشام (سوريا وفلسطين والأردن)
قال : ولكن .. هل كانت هناك دولة عربية في فلسطين أيام الاحتلال
الروماني ؟

قلت : ليس بالمعنى العصر-لكلمة دولة ، ولكن القبائل الإسلامية كانت هناك .
قال : احذرنى ، فأنا أتحدث هنا من موقعى ككاتب ليس طرفا في صراع ، ولا
أستطيع أن أرفض تماما حق اليهود في إقامة دولة إسرائيل ، ولكنى أومن تماما بحق
الفلسطينيين أيضا في إقامة دولتهم ووطنهم .

• • •

وهنا قام دورنجات وأحضر نسخة من الكتاب الذى كتبه عن المشكلة
الاسرائيلية العربية وأخذ يطلعنى على فقرات منه لا تتعدى المعانى السابقة
واستغربت في الحقيقة ، فعنى هذا أن الرجل كان قد استعد أيضا للقاء مثلا
استعددت له ، فهو قد علم الصفحات بأوراق صغيرة ، وخطط بالاحمر تحت
الفقرات المذكورة ليسهل له الرجوع إليها أثناء نقاشنا ، وكأنه كان متأكدا أننا لا بد
أن نتطرق إلى هذا الموضوع وموقفه منه . وكم كان باستطاعتى أن أشتج أو ألقى
عليه محاضرة طويلة عن تاريخ الصراع العربى الاسرائيلى ، ولكنى قدرت ، إذا
كان الرجل يحمل هذا القدر من التفتح لمعرفة الحقيقة وإدراكها ، فإن خير
ما يمكن عمله أن أدعوه لزيارة القاهرة ومقابلة منطلقنا . أولئك الذين يتولون
شرح القضية لنا نحن فى حين أن مهمتهم أن يشرحوا وجهة النظر لمن هم فى
حاجة ماسة وحقيقية لها ، حتى النية هؤلاء الذين خدعتهم آلة الدعاية

الاسرائيلية التي لم تقابلها أبدا ردود حرية معقولة ومقبولة وعادلة وصادقة في حين أنها فعلا وفي الحقيقة كذلك .

هو قادم إذن في نوفمبر ، وكسب كاتب عالمي مسموع الكلمة أهم كثيرا جدا من عقد مؤتمر لا يحضره إلا المتعاطفون معنا والمؤيدون ، وتنفق عليهم الآلاف وفي أحيان كثيرة لا تظفر من ورائهم إلا خبرا سهلا في صفحة داخلية من جريدة أوروبية ، هي في معظم الأحيان معادية . لقاء حافل ، مع كاتب حافل وما أذهلني فيه هو تعاطفه معنا ، ذلك الذي لا تعرفه ، ولم لحفل بأن تعرفه . وإلى اللقاء دورتهات الكبير في نوفمبر القادم ، إذا شاء المولى ، وهو على كل شيء قدير .

افتح الحنفية ينزل كوكابين

أنا شخصيا مذهول ومتدهش من هذه الخاصية (القطيعة) التي يتمتع بها إعلامنا الموقر. أن يعقد الرئيس اجتماعا مع كبار المسؤولين يناقش فيه كثيراً من مشاكل مصر العليا، ومن ضمنها وقوع كثير من المصريين ضحايا المخدرات، شيء جديد علينا - أو بالأصح على أجيالنا عموماً مثل الهيرويين والكوكابين شياً، وأما أن يتحول هذا التوجيه إلى (حمى) تسرى في أنحاء المجتمع كله، صحافة وإذاعة وتلفزيون، وأحاديث دينية، حتى حديث الروح يتحدث عن الكوكابين، وخمسة لصحتك، ولحظة من فضلك وحديث الصباح، وسهرة المساء ومساء السهرة، كوكابين، وهيرويين، الموت القادم للزحف، نهاية العمر، التأثير المروع على القدرة الجنسية، والعصبية والنفسية الإدمان، الجنون لا علاج من إدمان الكوكابين، فالمريض إذا خرج يعود وإذا تعود انتهى.

حمى بحيفة أمامي ومن خلفي وعلى جانبي، وفي السيارة، والأنيوس ومع راكبي التاكسي، وجلسات العائلات إن جلست، ونعمة الزائرات والزائرين كلما جاءوا (تسمو) حمى رهبة وطوفان حتى انى تصورت انى لو فتحت الحنفية

لتزل منها وابل من الكوكابين والهيرويين ، وإذا فتحت النافذة ستهب على عاصفة من دخان الحشيش ، وإذا أكلت «عشى» في عزومة ساجده محشوا بالآفيون وجوزة الطيب .

ما هذا يا إخواني ؟ !

لقد هالني الأمر حقاً ، وظننت أننا أصبنا بضرب لانجاة منه ، ولى ولدان شايان في عمر الزهور ، يرودان النوادي والجلسات ، ولاحظت في المدة الأخيرة أني دائم النظر في عيونهما لأرى فيها أي احمرار طارئ حتى ابنتي الصغيرة سألتني : ما هو هذا الكوكابين يا بابا ؟ !

قلت لها : إنه مادة مخدرة .

قالت : أعرف هذا ، ولكن شكلها إيه ؟ طعمها إيه ؟ لونها إيه ؟

قلت : والله يا بنتي أنا ما رأيتها في حياتي .

قالت : كيف وأنت قد درست الطب والعقاقير ولا بد أنهم أروها لك ؟

قلت لها : الحقيقة أنه كان مفروضاً أن أراها ولكن قسم العقاقير كله وقسم المادة الطبية (الماتيريا ميديكا) لم يكن به ، بل في مصر كلها أي كوكابين أيامها (في الخمسينات) ولا أي هيرويين ، هم أرونا فقط قطعة حشيش وقطعة آفيون وكانت كلتاها موضوعاً في برلمان مشمع بالشمع الأحمر ، وعليه خاتم الأستاذ رئيس القسم (الدكتور شريف) ، ولما سألتنا عن السر في هذا الخاتم وعن ضرورة أن نتعرف على المادة ونلمسها ونشمها باعتبارنا من الممكن أن نمتحن فيها قالوا : لقد كنا نفعل هذا منذ بضع سنوات ، ولكننا كنا نلاحظ تناقص عهدة الحشيش بالذات ، عقب كل فصل عملي ، فأصر مساعد المعلم (حتى لا يروح

في داهية إذا خلصت عهده) أن نضعها هكذا بحيث لا يلمسها أى طالب ولما جادلنا وقلنا : وماذا نفعل اذا جاءت لنا في الامتحان الشفوى ولم نستطع أن نتعرف عليها ؟ قال لنا الدكتور شريف : اطمئنوا .. إننا لانأق بها أبدا في الامتحانات اعتبروها خارج المقرر ، ونحن نريكم إياها فقط لتعرفوا عليها - من بعيد لبعيد - ولأغراض الطب الشرعى فيما بعد حين تدرسونه ، وليس لأغراض اللمس والشم والتعرف كما هى العادة مع جميع العقاقير الأخرى .

* * *

هذه الحملة الإعلامية الرهيبة أحدثت للأسف الشديد ، أثرا عكسيا تماما حتى إن حب استطلاع الكاتب جعله يتساءل هو الآخر ، ما هى بالضبط عادة الكوكابين ، وكيف تستخلص ، وما هو طعمها ولونها ؟ وللأسف حين سألت بعض شبان أحد النوادي الكبرى في عاصمتنا كانت معلوماتهم عن (الأبيض) أى الكوكابين، «والأسمر» أى الهيروين وافرة تماما، وأيضا عن كيفية التعاطى وأنواع التعاطى بالشم أو بالشد أو بالحقن في الوريد ، وحين تساءلت عن هذه (الشيشات) الصغيرة التى تشبه (البيبه) تطوع واحد منهم طويلا الباع وقال لى أنها تستعمل لاستنشاق ماسماه (القاعدة الأساسية) وهى أقوى أنواع الكوكابين .

أرأيتم ماذا يصنع الإعلام المغلوط ؟

حتى لو كان عن مادة ضارة أو قاتلة ؟

إنه يثير لدى الشباب حب الاستطلاع الشديد لمعرفة هذا الشيء السرى الغامض الذى يتكلم الجميع عنه ، وهى إحدى طبائع البشر التى لا يمكنه

الخلاص منها ، وأذكر وأنا طالب في كلية الطب أنه حدثت موجة دعائية واسعة ضد الشيوعية (أيام حكم صدق) وحدثت اعتقالات وكنا جميعنا نحن الشباب والكبار نتحدث عن الشيوعية ، ولم يكن أحد قد قرأ عنها أو لها شيئا ، وهكذا بدأ حب استطلاعنا يجار لكي نعرف ، وما كان الشاب منا يكاد يجد كتابا يتحدث عن الشيوعية أو الاشتراكية أو يقابل إنسانا معروفا عنه أنه شيوعي أو اشتراكي إلا ويحس أنه عثر على كنز ، ويبدأ ينال عليه بالأسئلة وطبعا لم يعتنق الجميع الشيوعية ، ولكن نسبة كبيرة صعدت من حب الاستطلاع إلى الدراسة إلى (الإدمان) .

وهذا هو بالضبط ما فعلناه بحكاية الجماعات الإسلامية أخذنا نحاربها ونتحدث عنها ، ونحن لا نعرف عنها شيئا ، والشباب بحكم طبيعته شديد الشغف لمعرفة شيء عنها ، وهكذا ما كان هذا الشباب يكاد يلتقي بشاب ملتصق في مسجد حتى يتسمر أمامه واقفا سائلا طالبا المعرفة التي غالبا ما كانت تنتهي بالانضمام .

* * *

ولكنني في زيارتي لذلك النادي الكبير واجتماعي بأكثر من عشرة شبان فيه أحببت أن أعرف الحقيقة المجردة بعيدا عن تهاويل الإعلام .

فسألته : هل تعرفون شبانا يتعاطون هذه المواد في النادي ؟

فكانت الإجابة : نعم ..

ولكنني علت أسأل واحدا منهم بالذات كان يبدو اجتماعيا كثير المعارف والاختلاط : إني أسألك عن شئت أنت بالذات ، كم شابا تعرفه معرفة شخصية دقيقة في هذا النادي ويتعاطى المخدرات ؟

قال : حوالى عشرين ..

قلت : كم واحدا منهم يتعاطى الكوكايين ؟

قال : إلى الآن لا أحد ، لأن الكوكايين غال جدا ، ولكن بعضهم يتعاطى

الهروين .

قلت : كم واحدا ؟

قال : حوالى اثنين أو ثلاثة ...

قلت : أنا أريد العدد بالضبط ؟

قال : قبل حملة مكافحة المخدرات الأخيرة كانوا اثنين ، بعد الحملة

أصبحوا ثلاثة ..

* * *

وهنا أتوقف وقفة تأمل معكم ..

فليس الأمر مخدرات هذه المرة ..

وليس الأمر أمر جهات أجنبية تتولى (تسميم) عقول الشباب

ولكنه أمر خطير جدا ، أمر طريقتنا في علاج مشاكلنا ...

ولقد كنت منذ بضعة أشهر أستاذًا زائرا في جامعة لوس أنجيلوس ، ومدينة

لوس أنجيلوس تعتبر أكبر مدينة أمريكية مستهلكة للكوكايين والهروين بالذات

باعتبارها لصيقة بالحدود المكسيكية الأمريكية التي تعتبر أهم وكر لاستيراد

وتخزين الكوكايين لأمريكا بواسطة تجار المافيا وعصاباتهما .

والأمر في مجال الشباب . والشابات بالذات ، ليس أمرا واحدا من كل

عشرين أو اثنين ، إنه أمر يصل إلى ٥٠٪ من سيدات وبنات لوس أنجيلوس

الباحثات عن النجومية والشهرة في هوليوود اللاتي غالبا ما يصبن بالإحباط وينتهن إلى محذر ما ، يحتاج نقودا والنقود تحتاج أجسادا تباع ورقيقا أبيض ومصائب كثيرة ، لا أول لها ولا آخر .

بمعنى أن كارثة المخدرات في لوس أنجيلوس لاتقاس أبدا بما يحدث هنا في القاهرة أو غيرها ، إنها هناك كارثة قومية بالفعل ..
فكيف عالجوا ، ويعالجون هذه الكارثة ؟

لاحظت من طول ما شاهدت التلفزيون بمحطاته الكثيرة هناك أن لا أحد يتحدث عن (ضرر) المخدر أبدا أو بصور الانحدار الخفيف الذي يحدث للشخصية إذا تعودت عليه لأن تصوير هذا الانحدار نفسه يخلق في المشاهد الصحيح الرغبة في تجربة هذا الانحدار ، ففي داخل النفس البشرية قوة باتية ترغب في الحياة وتحبها . وقوة هادمة ضائعة بالحياة وتحب التخلص منها ، وقد لاحظ العلماء أن عدد المدخنين في العالم ، وبالدات من الشباب قد كثر بشكل مذهل بعد أن أرغمت الحكومات شركات السجائر على وضع شعار (المدخنين ضار جدا بالصحة) فهذا الشعار يداعب وتر الضيق من الحياة والرغبة في التخلص منها ، خاصة لو كان هذا التخلص ليس بالشكل العنيف مثل قطع شريان اليد أو الموت شنقا بكرافطة .

فهذه القوة الهادمة للحياة تغريها أى مادة تهدم الحياة وتنجذب إليها ، وكأنها النداهة التي تنادى على بحارة السفن في الأساطير فيندفعون ناحيتها لتسحقهم سفنهم على صخور الجزائر ويموتوا غرقا . إنه نداء خفي غامض يتسرب إلى النفس في عدوية ورقة . وكأنه نداء الشيطان المتكرر على هيئة أجمل فاتنة ..

ونحن بدعايتنا الضخمة (ضد) الشيء المهلك ، (نحب) دون أن ندري
هذا الشيء المهلك للشباب الغض الأغر ، وحتى بالقليل نثير فيه حب
الاستطلاع كما سألتني الطفلة البريئة عن ماهية شكل وطعم وحكاية
الكوكابين ؟

إني معتقد أننا بإعلامنا المموم هذا ضد تلك السموم قد أثرا ملايين من
هذه الأسئلة في عقول الشباب والأطفال وحتى الكبار .

وهذا ما لم يفعله الإعلام الأمريكي .
الإعلام الأمريكي أو المجتمع هناك . فعل شيئا آخر ..

أولا : بنى مصحات كثيرة خاصة ، ليس لمرضى الأمراض العقلية والنفسية
ومعهم مدمنو العقاقير (وعلى فكرة كلمة مدمن لم تعد تستعمل في القاموس
الطبي الحديث . إنما حلت مكانها كلمات مثل «إساءة استخدام العقار» أو التعود
على استخدام العقار الضار) إذ هذا هو بالضبط التعريف العلمي الدقيق فإن
كلمة المدمن مثلها مثل كلمة المجنون ، لم تعد تعنى شيئا ، فلم يعد هناك أناس
اسمهم مجانين . إنما أصبحت أمراضا محددة ، تسمى بأسماء محددة ولها علامات
محددة .

المهم بنوا المصحات أو تبرع بها أغنيائهم ، الممثل الأمريكي الذي دائما
ما أنسى اسمه (وبالطبع ليس روك هلسون) ذلك الذي مات ابته من جراء
تناول جرعة زائدة من الهيروين ، تبرع ببناء مصحة دفع فيها مليوني دولار
وجمع الباقي من الأغنياء والأصدقاء ، مصحات أهلية ، ومصحات حكومية
ومصحات تأمين صحي ، السرية فيها مكفولة والعلاج لا يستغرق كثيراً وأثناء

العلاج هناك رعاية اجتماعية للمريض وأسرته .

وهكذا كل ما بقى على الإعلام ليفعله ، وهو يفعله ، أن تخرج المديعة على الجمهور وتقول : إذا كانت عندك مشكلة عقاقير (لاحظوا كلمة مشكلة) فاتصل بتليفون رقم كذا ، تصلك سيارة ، ودع الباقي لنا ، لا مناظر تحشيش أو شم كوكابين أو هيرويين ولا شيش ولا أناييب ولا هذا الكلام الخطير الفارع الذى ملأنا به عقول الشباب البريء طوال الأيام السابقة .

ذلك أنهم هناك يعتبرون من يتعود استعمال هذه العقاقير إنسانا مريضا لم تلده أمه مدمنا ، وإنما هناك ظروف اجتماعية واقتصادية ، وفى مجتمعاتنا سياسة دفعت هذا الشباب إلى اللجوء إلى العقار ليشكل له هدفا يحمي من أمله فمعظم الشباب الحائر التائه ، هو هكذا ، لأنه لا يعرف له هدفا فى الحياة ولا يريد أحد أن يساعده على إيجاد هدف له فى الحياة ، وفى مجتمع كمجتمعنا العمل فيه قليل جدا ، والفراغ واسع وممتد جدا من السهل تماما أن ينزلق المرء إلى فكرة أن يكون له هدف صناعى ، يستيقظ من أجل تناوله ، ويكسب كيفما كان مصدر النقود ليشتريه ويشقى ويعمل أقل وقت ممكن لينمرد بالعقار هدفه ومحبوبه ويعطى له نفسه تماما طوال ما تبقى من ساعات النهار والليل ، وكأنه وجد بغيته وكأنه وجد له الهدف التائه ، وكأنه كان ضالا فهدى .

* * *

ولا أستطيع أن أنهى هذه الكلمة تلك التى تتصدى لمعالجتنا الخاطئة لإحدى مشاكلنا الطارئة ، دون أن أذكر مقالا قرأته لأستاذ ورئيس قسم الأمراض العصبية والنفسية فى إحدى كليات الطب بمناسبة الخمر المسمومة

يقول هذا العلامة الذى مهمته أن يدرس العلاج لطلبته كيف يعالجون من يعاقرون الخمر باعتبارهم مرضى : أن هذا السم هو الانتقام من هؤلاء الذين يشربون الخمر ، ويدعوا الله فى النهاية أن يميت كل من يشرب الخمر ، مسمومة أم غير مسمومة ..

تصوروا هذا رأى أستاذ ورئيس قسم بمعنى أنه لو ذهب له مريض يشرب الخمر مفروض أن يعامله كمريض وينتشله من عثرته ، إنما حسبها كتب ورأى سيعالجه بأن يدس له السم فى كأس خمر قيمته ويريح الدنيا من عاص كبير .

إن الحد الذى أقامه الله سبحانه وتعالى لتعاطى الخمر هو أن يجلد ، ولكن هذا الأستاذ - ولا أدري كيف مرت هذه القصة على مجلس جامعة القاهرة الموقر - يعالج متعاطى الخمر بقتله أى بارتكاب معصية أكبر ، أكبر معصية ، قتل النفس ...

وكان هذا هو الإسلام ..

إنه الجهل بالإسلام ، والجهل بالعلم والجهل بالمرض والجهل بمعالجة الأمراض الاجتماعية والصحية والنفسية التى تصيب الخلق لأسباب كثيرة . لا يعلمها سوى الله .

المساحة الحرجة

ظللت لا أعرف لماذا كنت من صفري احب التجمعات البشرية ، كمجبي للأشخاص الأفراد ، وأعشق وجودي بينها وإحساسي بها ، في الأفراح والموالد والأعياد . وحتى في المآتم والجنائزات والقهاوى ، أحب أن أكون واحدا من كل كبير حلو الروح ، المرح فيه بحر ، أو بحيرة مقدسة كبيرة ، بنعم الجميع بالاستحمام فيها ، إذ هو مرح (عام) وليس مرحا غريبا خاصا محدود الأثر .

ظللت لا أعرف لماذا كنت . إلى عهد قريب . أحب تلك التجمعات والآن أصبحت أضيق بها ، إلى أن وجدت الإجابة في مهرجان جرش . والحقيقة أني كنت قد سمعت عن المهرجان كثيراً ، وقرأت الكثير مما كتب عنه . ولكني لا أعرف لماذا أيضا أصبحت أشك في كل مدح مبالغ فيه على صفحات جرائدنا العربية ، أشم دائما رائحة شيء ما وراءه ، ولم أكن أتصور أنه سيقدر لي أن أرى المهرجان رأى العين ، ولكن ، هذا ما حدث ، فلقد تلقيت دعوة ملحة خاصة من الأستاذ محمد الخطيب وزير الإعلام والثقافة الاردني لحضور المهرجان ، وكنت قد زرت الأردن في العام الماضي ، زيارة خاطفة لحضور المؤتمر الوطني الفلسطيني ، وكانت تلك أول مرة أرى فيها هذا البلد

العربي ، ورغم أننا كنا مقيمين في منطقة الفنادق في عمان محاطين بالأسلاك الشائكة والحرس المدجج حتى داخل الفنادق ، تحوطا من أية محاولات إرهابية . رغم هذا ، إلا أن اللوحة الحائطية التي رسمت بها الأردن جعلتني ألبى الدعوة ، فأنا أريد ، مما رأيته ، وشاهدته أن أعرف عن هذا البلد الشقيق أكثر وأكثر ، إذ في الحقيقة تلك اللوحة كانت قد بهرتني تماما ، إذ لم أكن أتصور الأردن هكذا أبدا ، أو بالأصح ما صارت إليه الأردن ..
المهم ..

كانت المفاجأة الكبرى بالنسبة لي حين قابلنا وزير الثقافة والإعلام الأردني في المطار أن أجدته هو بنفسه ، الصديق محمد الخطيب ، رفيق أيام الرعب في الجزائر ، حين ذهبت مع مجموعة من الصحفيين المصريين لتغطية أخبار الخلاف الخطير الذي نشأ بين مجموعة بن خدة ومجموعة بن بيللا عشية حصول الجزائر على استقلالها ، كان الأستاذ محمد الخطيب معنا ، مندوبا عن وكالة أنباء الشرق الأوسط المصرية التي كان يعمل بها آنذاك ، ومعا ، وبصحبه الزملاء حمدي فؤاد من الأهرام وفوميل لبيب عن دار الهلال ، ومحمد العزبي عن الجمهورية ورشاد أدهم عن صوت العرب (بطل الساحة في ذلك الوقت) - حوالى عام ١٩٦٢ - عشنا أياما من الهول والإفلاس والخطورة لا تنسى ، ذلك أننا وصلنا بلدا لا دولة فيه وليس فيه حكومة ولا شرطة ، ولا قانون بالمرّة ، إذ كان الصراع حول من يحكم وكيف يحكم ، قد ترك البلد فارغا تماما وكان الفرنسيون الذين كانوا يسكنون بكل شيء ، قد فعلوا ، مثلما فعل مرشدو القناة بعد تأميمها ، وتركوا الجزائر كلهم فجأة وعادوا إلى فرنسا .. حتى أن التليفونات نفسها كانت لا تجد من يحصل ثمن مكالماتها ، وأذكر أني كنت أفتح الخط على

جريدة الجمهورية وأملى صفحة كاملة من الجريدة حديثا كان أوتحيلا قد
يستغرق إملاؤه ساعتين دون أن أجد من يحاسبني ، وكذلك كان يفعل
الزملاء ..

وكم من نوادر وحكايات حدثت خلال الأربعين يوما التي أمضيها
هناك ، تقريبا بلا أى نقود معنا ، إذ كانت التحويلات أيضا مشلولة ، ولولا
أننا كنا نأكل مع سفيرنا على خشبة - واحد من أعظم سفرائنا في الخارج - ذلك
الذي كان ذاهبا في مهمة قتالية ، مصحوبا بـ (بودى جاردز) ، لولا أننا كنا
نأكل عنده ومعه ويقرضنا مصروف جيب ، لهلكنا جوعا ، وقد تقطعت بنا كل
سبل الاتصال بمصر .

فوجئت بالوزير محمد الخطيب هو نفسه محمد الخطيب زميلنا في رحلة
الهل ، وفوجئت به يذكرني بأشياء حدثت في تلك الرحلة لا يتسع المجال
لذكرها هنا ، رغم مدلولاتها الخطيرة ، إذ كانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة
التي أزاول فيها عملا صحفيا حقيقيا وكما يقولون (أعطى) أخبارا وأحداثا
وأدخل في منافسات ومسابقات ..

وفرحت للمفاجأة حقا ، فما كنت أبدا أتوقعها .. ثلاثة وعشرون عاما
جعلت من المراسل الشاب لوكالة أنباء الشرق الأوسط المصرية ، رئيسا لوكالة
أنباء الأردن - باترا - ثم وزيرا .. ياله من مشوار !

والغريب في الأمر أن الوزير اعترف لي بكل أمانة أنه تسلم وزارة الإعلام
والثقافة والسياحة حديثا - حين كنت في أمريكا - على أثر استقالة الوزيرة ذات
الموقف - السيدة ليلى شرف ، وأنها هي ، ولجنة المهرجان العليا التي ترأسها

الملكة - التي قامت بتنظيم كل كبيرة وصغيرة من شئون المهرجان وبرامجه .

* * *

وهكذا وجدت نفسي (مضطرا) لمشاهدة المهرجان ، ذلك أنى في الحقيقة كنت ذاهبا لرؤية الأردن نفسها ، وليس لحضور أفراح ومهرجانات .. ولكني أشكر الظروف التي (اضطرتني) لحضور المهرجان ، وأشكر الوزير الصديق على دعوتي ، فبعد حفلة الافتتاح الرسمية التي قام بها جلالة الملك حسين والملكة نور ، والتي استغرقت فيها لأن الملك والملكة قد وقفا أكثر من ثلاثة أرباع الساعة والوفود والفرق المشتركة في المهرجان تمر أمامها ، وهكذا اضطر المدعوون - وأنا بالطبع منهم - إلى الوقوف على أقدامهم طوال ذلك الوقت ، إن الملك يريد أن يحبى الفن والفنانين تحية احترام عميق لماهية الفن والثقافة حتى - وبالذات - لو كانت ثقافة شعبية أو تلقائية ، أعجبتني اللفتة تماما .

وبدأت ليالى المهرجان ..

وقبأة وجدت الطفل الذي فى يستيقظ و(يتفرج) و(يشارك) الطفل الذى كان يسهر فى ليالى المولد ويساهم فى حلقات الذكر وينهر بمن يتلعون النار ويدخلون السيوف فى بطونهم.. الطفل الذى كان يتصور الغوازي وهن يرقصن ويغنين كائنات خرافية، كأنهن جان ولسن بشرا.. اللف والفرجة والضحكة والحففة والأنوار، حتى ولو كانت بكلوبات ، تخلب الأبواب الطفل فى مولد الحسين والسيدة والشيخ الشبراوى ، الطفل فى التيفولى فى الدانمارك حتى لو كان قد أصبح فى الثلاثين وهو يركب القطارات المندفعة والصواريخ المنطلقة فى دائرة لعنان السماء ، الطفل ولو كان فى الأربعين

والخمسين في (ديزنى لاند) يخلع عنه فجأة كل الأقمعة الناضجة المجمدة
الكثيفة ، ويرتد نقيا كالبلور ، صافيا كجدول حياة خالية رقراقة ، الطفل الذى
يحب الجموع كما يحب الوجوه الجميلة والقذود الجميلة ، الطفل الذى يحب أن
يسمع ، بل ويشارك ولو بصوت خافت ، فى الأغاني والموسيقى ..

وجدت هذا الطفل ينفذ عن نفسه الملابس الشتوية الكبيرة الثقيلة ويتزع
عنه كل أغطيته ويكاد مع الفرحة يطير ، ومع الدقة يرقص ، ومع كل شيء
وكل حدث يتوقف ويستمتع ويحب ..

ذلك الطفل الذى كان قد خيل إلى أنه انتهى من زمن ومات لأنه كبير
ونضج ونضخم عقله بطريقة ابتلعت بها كل تلقائيته ، واندفاعه ، وفرحته
المستمرة بالحياة .. وجدته يعود ..

* * *

ولكن العقل أيضا .. وجدته ، ويا للدهشة مع التلقائية والفرجة والطفولة
يستيقظ ، بل ، ولأول مرة ، يجد (متعة) فى التفكير والتأمل ..

وجاءت الفكرة هادرة كالمياه المندفعة من السد العالى ..

إننا فى مصر لابد أن نصنع شيئا يعيد لنا حبنا للحياة ..

أننى أمر فى قاهرتنا الحبيبة فى الشارع أو فى السيارة فأجد ملامحنا منقبضة
حتى ملامح الشبان والفتيات قاسية تعانى من الضيق .

ذلك أننا وكأنما استيقظنا ذات صباح فوجدنا أنفسنا قد وضعنا فى مأزق
حياة ، ووجود لا نعتقد أن شعبا قبلنا ، ولا شعبا بعدنا سيوضع فيه ، ذلك أننا

استيقظنا لنجد أننا تضاعفنا في فترة لا تزيد عن الربع قرن أربع مرات في بلاد
ورقعة زراعية ومأهولة لا تتسع إلا بالكثير لاثني عشر مليون إنسان ، أصبح فيها
الآن ربما أكثر من خمسين مليونا من السكان ..

هذه المرة ليست المشكلة مشكلة فقر وغنى ، مشكلة طبقية أو سياسية ، ولكنها
مشكلة لم تخطر لآدم سميث مفكر الرأسمالية أو كارل ماركس مفكر الاشتراكية
على بال .. مشكلة وجود بشرى مكثف تكثيفا هائلا بحيث يجعل من نفس ذلك
الوجود جحما بشريا لا يطاق .. إن الإنسان إنسان لأنه (نوع) والنبات
والحشرات هكذا لأنها (كم) والإنسان أبدا لا يستطيع أن يحيا - بل أن يسعد
ويزاول كل وظائفه العليا كإنسان إلا وهو بجها كنوع إنسانى ، والنوع الإنسانى
أحد متطلباته ليس الطعام فقط أو الأوكسيجين ولكن (المساحة) أو بالأدق
الحد الأدنى من المساحة اللازمة لحركة وتنفس ووجود الكائن البشرى الحى
وأعتقد أن علماء الجغرافيا البشرية والعلوم الاجتماعية لابد يدركون أن هناك
(مساحة حرجة) لازمة لوجود كل إنسان على حدة ليتكون مجتمع ما . فإذا
تفخخم العدد بحيث تجاوز هذه المساحة الحرجة ، ووصل إلى مرحلة من
التلاصق والتكثف غير بشرية بالمرة ، لابد أن تحدث لهذا الكائن البشرى
تغيرات وأمزجة وإنجاهات وتطرفات وأنواع من الخيل والهوس والجنون الخفى
على المستوى الفردى والجماعى ، لم يعرفها الناس من قبل ..

وذلك هو المأزق البشرى الخطير الذى نحن عليه الآن ..

لأمر ما عن للعقيلة الجماعية المصرية أن تتكاثر وتتكثف ، دفاعا مغلوطا عن
النفس ربما ، سرطانا جماعيا ربما ، جشعا لحياة لا منعة فيها إلا الطعام والجنس

ربما ، لا أعرف ، والغريب أن أحدا من علمائنا لا يعرف أيضا ، بل لم تحاول جامعاتنا أن تدرس هذه الظاهرة ، وما عدا ذلك الكتاب العظيم الذى كتبه الدكتور جمال حمدان والذى اصطلحت جزأه الرابع الخاص بالسكان فى مصر معى فى رحلة سابقة - وهى دراسة رغم تفردھا وعبقريتها إلا أن جمال حمدان يقف أيضا ، وهو العالم الفذ الكبير ، يتساءل حائرا عن سر هذا الانفجار البشرى المصرى

أما السر فتتركه لبحث علمائنا ، إن أتاح لهم ازدحامهم هم الآخرين أن يبحثوا ، أما نتائج هذا الانفجار وما يفعله فينا وينا فتلك أمور لا بد أن نعى بها تماما وإلا هلكنا ، أجل ، أقولها بملء صوتى هلكنا .. فكثير ، بل أقول .. معظم ما نشكونه ، مرجعه إلى هذا التضخم السرطاني الهائل فى عدد السكان والأفواه .. ولولا أننا شعب عريق الحضارة تشكل المادة الحضارية جزءا أساسيا من تكوين أبسط فلاحيه وأميه ، لكانت قد حدثت لنا أهوال وأهوال .. إن معظم الدعاوى والغوغائية السطحية والسلوك الغريب فى مدرجات الكرة وحفلات الغناء ، والشارع ، والنادى ، ووسائل المواصلات ، كلها راجعة إلى (التلاصق) الجسدى الذى تعدى المسافة الحرجة واعتدى على التفرد البشرى الواجب ليكون الإنسان أو الإنسانية بشرا سويا .. وفى مثل ذلك الجو غير العاقل وغير البشرى فأى دعوى حتى لو كانت ضدنا ستجد الاستجابة ، فالتناس من فرط ازدحامها أصبحت نكره بعضها لله فى الله ، ونكره وجودها معا وقد ضاق ذلك الوجود إلى حد الاختناق ، تتوق إلى مكان أو فرصة تراول فيه تفردھا وإنسانيتها ونوعيتها البشرية فلا نجد ..

أقول نترك دراسة الظاهرة أسبابها وملاحظها ، وماذا يمكن أن تفعله لنخرج من هذا المأزق الخطير تماما ، للعلماء وللمتنخصصين ونعود للمهرجان .

* * *

هنا الازدحام أيضا موجود ، هذا حقيقى . ولكنه ازدحام إنسانى وليس تكديسا بشريا ، البنات والأولاد والأطفال والجذات والرجال والشباب والشابات خمسة عشر ألفا أو يزيدون كل ليلة ، تزدحم بهم ساحة تقل كثيرا عن ساحة ملعب كرة ولكن أحدا لا يصطدم بأحد ، وشابا لا يعاكس أبدا فتاة ، والأطفال أطفال فعلا وليسوا شياطين صغارا والعروض كثيرة ومتنوعة ، من أربعين دولة وحوالى مائة وأربعين عرضا من ليالى المهرجان العشرين ، وما أروع لحظة اللقاء بين الفن والناس وبين الناس والفن ، ما أروع لحظة التفرج والتسرح التى أصرت عليها فى نظرتى المسرحية ، هنا النفس جزء من الفرجة والممثلون والموسيقيون والراقصون جزء من الجمهور والجميع فى حالة عظيمة من النشوة هنا الجميع أطفال إلى درجة البراعة المحضة وكبار إلى درجة التصرف المتحضر غير المندفع أو المجنون ، هنا الجميع فى ساحة واحدة ، ومزدحمون ولكن بقى لكل منهم الحد الأدنى من المسافة ، والمساحة الراجعة أن تتوافر للإنسان طفلا كان أو شيخا ليتنفس ويحيا ويتحرك ، ويحب ، وينفعل ، وينهر ، المزمار الصعيدى والعطلة بجوار الفرقة القومية للفنون الشعبية بجوار الفرقة الأمريكية والبالية الانجليزى وفرقة الرقص الروسى ، والأنوار ساطعة والتلال المحيطة والوادی تحفل بالنور ، النور الصادر من كل عينين متطلعتين ، هنا الحياة تبدو جميلة جدا جديدة بأن تحيا ، والبشر

يبدون جميلين جدا جديرين بالحياة وبالقن وبالحب وبالحرية وبالاستقلال وبكل ما يجعل الإنسان إنسانا بل وحتى سورمان .

والسبب !

إن عدد الناس هنا إذا قورنوا بمساحة الأرض المأهولة معقول تماما ، هنا الشارع عريض فسيح جديد ، وليس حارة أصبحت تتكدس بالبشر والعربات والحناقات ، هنا أطلق سراح الإنسان ليتحرك فنحن في القاهرة سجناء شوارعنا وبيوتنا وفنادقنا ووسائل مواصلاتنا وانتقالاتنا سجناء فعلا لا قولا ، سجناء لأننا لا نستطيع الحركة كما نريد فتتكدس وندبها فولا وطعمية وبلا حركة نتخن ونتخن ولا رياضة فردية ولا جماعية ولا مكان للسير أو التمشي ، بشر.. بشر.. بشر.. طوفان من البشر ، ضللت مرة طريقى ودخلت حيا لا أعرفه كدت أصاب بالذعر من العدد الخفيف من الناس المزدحمين في شارع واحد من حى واحد من مدينة واحدة من مدننا ، يا إلهى ، ماذا حدث وماذا نفعل ، فنحن بهذه الطريقة . وبهذا الكم لانحيا ، ولا نفرح ، ولا نبتهج ، ولا نحتفل ولا نقيم مهرجانات إنسانية حلوة ، ولا نفعل إلا أن نستلق أمام التلفزيون مستسلمين لمثعة سلبية تماما ، نتفرج على الكرتونيات ترسم صورا وقصصا ، بينما الحياة الحقة هى ما (يزاوها) الإنسان وليس ما (يتفرج) عليها ، وكأن ازدحامنا وصل إلى درجة التوقف أن نحيا ، بل حتى أن نوجد ، فوجودك دائما مجروح ومقتحم بوجود لصيق آخر لا تملك له دفعا .

محروسة أنت يا مصر هذا صحيح .

ولكن شعبك يخنقك ويخنق بك ، وحتى دعاواه مها تسربت بثوب من

العلم أو الدين فهي دعاوى اختناق بشرى وازدحام وجود .. وما هكذا تكون
الدعاوى أو توجد ، فالدعاوى يطلقها البشر للبشر ، فإذا كان الطالقون يحبون
في علبة سردين والمستقبلون يكتظون وكأنما في علبة تونة ، فإنها دعاوى اختناق
يرسلونها لختنقين ..

* * *

إنى متأكد أن مصر ستجتاز تلك الأزمة ، لا أعرف كيف ، ولكنى أعرف
أن هذا الشعب المجيد قد مرّ بأزمات وجود طاحنة ، مجاعات أكل فيها مالا
يؤكل ، حتى بعضه أكل بعضه ، وولادة كانوا في أحيان جزارين ، واحتلالات
متعاقبة لم ير مثلها شعب .

اعرف أننا سنجتاز هذه الأزمة بكل تأكيد ، ولكنى أصبحت في شك أن
يتم لنا هذا الاجتياز في أعمارنا نحن ، أو عمرى على الأقل ، وليس هذا
تشاؤما ، إنه عين التفاؤل ، فحتى السرطان الخلوى نفسه قد أصبح يشفى ويمكن
علاجه ، فما بالك بما هو أخف ، أخف لأن في أيدينا شفاءه ، ولو كنت من
حكومتنا لعقدت فوراً مؤتمراً عاجلاً أجمع له أعظم العلماء والمفكرين
والمتخصصين ويكون له موضوع واحد فقط .

كيف نحل مشاكل ازدحامنا الوجودى ووجودنا المزحم بطريقة تعيد لكل
مواطن منا إنسانيته ؟

حتى نعود نفرح ونبهج ونقيم أحلى المهرجانات .

ضحك الجنازات ؟

قرأت الحديث الذى أجراه ابننا الصحفي الشاب بهاء صلاح جاهين فى الأهرام مع الأستاذ العميد الدكتور لويس عوض . كان أهم محتويات الحديث أن الدكتور لويس عوض ينمى فى رثاء جليل حركة الكبار فى الأدب العربى وعلى رأسهم أستاذنا الكبير توفيق الحكيم وعمنا المبدع نجيب محفوظ ، وشيخ طريقتنا القصيرة يحيى حقي وكاتب هذه السطور، كذلك لم يسلم كبار نقادنا - ضمنا من النعمى - الناقدين الكبيرين الدكتور عبد القادر القط والدكتور على الراعى .

وقال الدكتور لويس عوض فيها قال : أنه جيل - يقصد هؤلاء جميعا الذين ذكرتهم - قد انتهى بحلول النكسة أو الهزيمة عام ٦٧ - ولم يعد لديه شىء يقوله أو يبدعه . وأنه هو شخصيا قد مل الكتابة والكلام وفرغت جعبته والحقيقة أنى كنت قبلها بليلة قد فرغت من قراءة كتاب الصديق الموهوب أحمد رجب «كلام فراغ» وهو كتاب من أعظم ما قرأت خلال الأعوام الماضية لا لأنه يحتوى على كنوز معرفة غالية ، ولا لأن حكمة الكون كله قد تلخصت فيه ، ولكن لأن أحمد رجب نموذج فريد فى الكتابة الساخرة ، وإذا كان الكاتب اللداع الصيت أرت بوكوالد قد ابتدع طريقة أمريكية فريدة فى السخرية خاصة

من الرؤساء الاميركيين وزوجاتهم - أثناء حكمهم بالطبع - محتويا في جميعه جده الروحي مارك توين ، وحتى شارلى شابلى كمؤلف إلا أنها طريقة أمريكية فيها سخرية ذكية ذكاء العواجز الحبياء أما صديقنا أحمد رجب فهو ساخر مصرى أصيل ، روحه من روح عبد الله النديم وأسلوبه فيه رشاقة الكاتب العبقرى الساخر المرحوم محمد صفى ، فيه نكتة محمود السعدنى الفارقة فى مصريتها وطول لسانها فيه لمسة صلاح جاهين الكاريكاتيرية وتلامذته من رمسيس إلى اللبى إلى محمد حاكم ... غير أن ميزة أحمد رجب الكبرى هى فى نهايات. نصف كلمة. التى يكتبها، إنه دائما يجهز لك قبلة مسيلة لدموع الضحك فى آخر كل فقرة يكتبها، وهى قبلة لا تقتل ولا تجرح ولكنها تدفعك حتى للتأمل وكأن فيها كل الحكمة . كنت فى الليلة التى قبلها قد انتهيت من قراءة الكتاب ، واستنفدت كل طاقى من الضحك بنى وبين نفسى أولا ، وبصوت عال يكاد يوقظ من فى البيت وحين طويت الكتاب ووضعته جانبا ، قلت لنفسى : هأنذا قد ضحكت بما يكفينى شهرا بأكمله .

ولم أكن أتصور أنى فى اليوم التالى مباشرة . سأضحك وأنا أقرأ حديث الدكتور لويس عوض كما لم أضحك فى حياتى .

وأنا أعرف صديقا لديه عادة غريبة هى أنه ، ما أن يدخل سرادقا لل عزاء حتى لو كان الميت أعز أقربائه . حتى تتأبه موجة ضحك عاصفة ، ولهذا لا يذهب لل عزاء أبدا إلا وهو يتلفع بكوفية يلفها حول نصف وجهه الأسفل حتى لا تحدث مأساة من جراء ضحكه على هذه الصورة .

أنا أيضا وجدت نفسى فى هذا الموقف لدى قرائى الجنازة التى أقامها

الدكتور لويس عوض ، جيلنا ، ولنفسه ، فقد وجدت نفسى أنفجر وأضحك وأضحك حتى كنت أحتق .

والدكتور لويس عوض ليس أستاذى فقط ، ولكنه صديق عمري عرفته منذ عام ١٩٥٣ ولا أزال أحبه وأوده وأحتفل به وبكل ما يقول وكأن اثنين وثلاثين عاما لم تمر على معرفتى به . ولكن هناك شيئا لا بد - لكى أكون صادقا مع نفسى - أن أعترف له أمام القراء بشيء ، ذلك أنى فى مبدأ الأمر كنت آخذ الآراء المتطرفة التى تبدأ تتدفق من قريحته بعد أن « يسخن » تفكيره كنت آخذها مأخذ الجد وأحتد عليه ويحتد على وتنخرط فى خناقة فكرية ما أنزل الله بها من سلطان . ولكنى جريت مرة ألا أفعل ، بل أكثر من هذا أن « أنفجر » على آرائه وألا أندمج فى الرد عليها ، وكانت النتيجة أنى بدأت بدل أن أغضب أن أبتسم بل أضحك ، بل أحيانا أضحك كثيرا وأحيل الموقف كله إلى موقف كوميدى صارخ .

وبالطبع هذا لا يحدث فى كل الأحوال فى الغالب آخذ حديث الدكتور لويس عوض مأخذا جادا عميقا - حين يكون الأمر كذلك - أما حين يتطرق فى الحال أقلبها ضحكا .

ولقد أضحكنى الحديث .

وبدأت الضحك بقوله « جيلنا » مسبغا على شرف الانتماء إلى جيل توفيق الحكيم « ٨٧ سنة » ونجيب محفوظ « ٧٤ سنة » وزكى نجيب محمود « فوق السبعين » والدكتور حسين فوزى ٨٨ وكلهم أطال الله فى أعمارهم جميعا فى سموق أشجار الكافور على شط نيل الجيزة ، جذورهم ضاربة فى تربة مصر منذ

العشرينات حين بدءوا الكتابة حين كنت أنا لا أزال في عالم الغيب حيث ولدت عام ٢٧ وبدأت الكتابة عام ٥٠ بينما هم عمالقة كبار بالكاد أصلح تلميذا لهم . أضحكني هذا الشرف الذي أسبغه عليّ الدكتور لويس مثلاً كان صديق الأستاذ محمد عودة أسبغة عليّ ، نفس الشرف ويقول إن أبي رحمه الله - قد قيلني في شهادة الميلاد بعد مجيشي بعشر سنوات حتى يتجنب أن أدخل « القرعة » في سن صغيرة .

ثم حين أوغلت في المقال - الحنازة - انتابني تلك الموجة الأخرى من ضحك الجنازات فالدكتور لويس يبدأ بإصدار حكم باتر لانقض فيه ولا إبرام - إنه انتهى منذ حاقت النكسة بمصر - وكذلك انتهى معه ما سماه جيلنا واحداً واحداً بمن فيهم العبد لله .

ضحكت لأنه منذ عام انتهاء الدكتور لويس عوض عام النكسة عام ٦٧ والدكتور لويس قد أبدع وأنتج أهم مؤلفاته على الإطلاق : كتابه المحيط عن اللغة العربية . ذلك العمل الخلاق الذي سيقى ما بقيت اللغة العربية ، كتابه عن : أعمدة الناصرية السبعة . كتابه عن جمال الدين الأفغاني وذلك الذي أثار من الضجة وكتب عنه عدد من المقالات ورغم أن معظمها كان نقداً متحيزاً يعادل ما كتب عن كل الكتب التي طبعت ونشرت في تلك الحقبة ثم على أثر خلاف حول النشر في الأهرام ، فجأة استقال من الأهرام ، واتخذ له مكتباً في شارع الهرم راح يقوم فيه بصناعة ثقيلة للحركة الثقافية ولا يزال بكلهمة ، ينشط ويعمل ...

بمعنى أن ما أنتجه لويس عوض - بعد ما أنتهى حسبما يقول ... يعادل إن

لم يتفوق كثيراً على إنتاجه قبل أن ينتهى وقبل النكسة ... فلماذا هذا المعزى الكبير لينصبه لنفسه ولنا .

وإذا أخذنا بقية الجيل فسنجد أن ما أنتجه الدكتور زكى نجيب محمود خلال السبعينات فقط يعتبر فى رأى أهم كتبه على الإطلاق ، أما الأستاذ نجيب محفوظ فله كل عام رواية وأحياناً روايتان وتعتبر رواية الخرافيش أو ملحمة الخرافيش فى رأى عملاً يرقى فوق مستوى العالمية ، ويكفى أن يكتب كاتب فى حياته عملاً واحداً كملاحمة الخرافيش ليخلد أبداً الدهر ، ودب سرفانتس لم ينتج إلا رواية واحدة عظيمة هى دون كيشوت ودانتى أنتج الجحيم وأنشأ بها فن الرواية الإيطالية ولغتها وكذلك جوته فى فاوست ونجيب محفوظ لم يتوقف وإنتاجه من ناحية الحجم والانتظام أكثر بكثير من إنتاج أى من تولستوى ودستوفسكى .

فلماذا هذا الحكم بالإعدام يا أستاذ ؟

أما إذا تركنا جيل الكبار هؤلاء وجئنا إلى الجيل الحائر - جيل - لإنتاجه أيضاً لم يتوقف . فكتابة المقالة اكتسبت خصائص القصة ، وكتابة القصة حفلت ببعض سخونة المقالة . وربما يكون ما أكتبه فى الأهرام نوعاً جديداً من «اللاوتشرك» على رأى أستاذنا المرحوم الدكتور مندور ورغم ذلك أيضاً لم أكف عن كتابة القصة فقد أصدرت منذ بيت من لحم ، مجموعات من القصص «أنا سلطان قانون الوجود» و«اعقلها وتوكل» ورغم المأساة التى تحياها الحركة المسرحية كتبت ما أعده فى رأى أهم مسرحية كتبها على الإطلاق - وهى مسرحية البهلوان ، تلك التى لم تر النور للتسوس الذى حدث لمسرح القطاعين الخاص والعام على حد سواء والقائمين عليه .

إذن هذا الجيل الذى حكمت عليه بالفناء رغم أنه فى السن التى يجب أن
يؤدى فيها إلى الشيخوخة الجميلة والتأمل الأعماق للحياة ولا يزال ينتج ويبدع
ويناضل ويخوض المعارك كأى كادح شاب .

ولو كنت مثلى يا دكتور تلتقى إنتاج الشبان الجدد ، كل عام ، شبان جدد
موهوبون خلاقون يكتبون ويصرفون على ما يكتبون لكي يطبعوه ويوزعوه
بأنفسهم وهو إنتاج عالى المستوى تماما .. أى قصة منه حتى لو كانت لمبتدىء
تفوق ما كان يكتبه الأوائل فى العشرينات ، فى عز ازدهار فن القصة القصيرة
آنذاك .

أذن موضوعيا لا يوجد ما يستدعى حكما بالإعدام ولا إقامة جنازة فالحركة
الإبداعية تمشى ببطء ، هذا صحيح وليس لها توهج الستينات هذا صحيح
ولكن الحركة الإبداعية غير منفصلة أبدا عن حركة الإنتاج فى المجتمع ككل
فالحلق نوع من الإنتاج ، ومجتمعنا بعهد انفتاحه (الملوث) كاد يثد حركة الإنتاج
فى المجتمع ككل وإذا كان هذا لم يحدث وإذا كانت هناك حركة عارمة تريد إعادة
الإنتاج إلى سابق عهده فلا بد أن يصاحبها حركة أشد فاعلية لإعادة الإنسان المنتج
إلى سابق عهده ، وهذا هو دور الفن والأدب والثقافة فنحن نحيا فى حالة مجاعة
ثقافية وأحوج مانكون إلى أن نبقى على أفران الفن القليلة التى لا تزال تقدم لنا
رغيف الثقافة والإبداع وكلمة منك أيها الناقد المعلم كانت كفيلة باستنهاض الهمم
وفتح أبواب إنتاج مغلقة ورعاية حركة تسبح ضد تيار عنيف بشع يريد أن ينظف نحبا
فى ظل التبعية البضائية والثقافية .

* * *

وبعد أن طال ضحكى مع حديث الدكتور لويس عوض بدأت دموع
تتجمع في أركان عيني. ذلك أنى أدركت المشكلة وعرفت أن الدكتور لويس
عوض يعاني من حالة من حالات اكتئابيه وما أكثرها ... فالرجل يحس أنه
يعيش في مجتمع يظلمه ويضطهده. وهذا ليس شعور شخص ولكن حقيقة
موضوعية فالدكتور لويس عوض هو الوحيد الباقي من العمالة الذي لم ينل
جائزة الأدب التقديرية فقط. ولكنه حتى لم يرشح لها ولو كنت من بعض من
نالوا هذه الجائزة عن غير حق وعن غير جدارة الا علو الصوت واحتلال المقاعد
والمنابر والوجود - ولو بالقوة في الصورة كما يقولون لو كنت واحدا من هؤلاء
لرفضت أن أنال جائزة الأدب بينما لويس عوض ذلك الذي لا يقل دوره عن
دور مندور وطه حسين والعقاد في النقد لم ينلها وغير مرشح لها

وأنا شخصا لا أعترف ولا أعتبر أن جائزة الدولة في الأدب تعني شيئا بالمرّة
لهم لا تصنع كاتباً. وعدم نوالها لا يهبط بكاتب ولم أعرها التفاتا منذ أن أنشئت
إلى الآن ولن أعيرها، ولكن الأمر بالنسبة للدكتور لويس عوض مسألة مختلفة فإن
الجامعات لا ترشحه لأن الجامعيين لا يكونون له حياً كثيراً والمجلس الأعلى للثقافة
أغلب أعضائه كتاب لم يكتب عنهم لويس عوض شيئا ذا بال. ولذلك فهم
يعادونه بل ويتمنون زواله ... أما هو نفسه فهو لا يمكن بكبرياء مصري جميل
أن يطلب لنفسه جائزة وحتى يتطلع إليها .

الأمر إذن أمرنا نحن .. نحن وزارة الثقافة ووزيرها نحن المسئولين في هذه
الدولة نحن الكتاب الذين تعلمنا من لويس عوض وسوف نتعلم عليه . كيف
نسكت على أمر كهذا وكيف نبقى ماردة مثله يعاني من حالة اكتئاب قصوى
يتمنى معها لو حطم وتحطم معه المعبود. أفقدنا إحساسنا بالآخرين إلى هذه

الدرجة . أم أن العيلة المديثة هي التي سادت الحركة الثقافية تماما ، وهي التي أصبح بيدها تقدير كل شيء وكل كاتب وكل مبدع وإنشاء كتاب كخيالات المقاتة وسلب المكانة والروح من كتاب عظام أحياء . وكأنهم بالقضاء على المبدعين الحقيقيين سوف يحتلون هم مكانتهم دون منافس أو منازع فلنظهر لهذا الرجل العظيم الذي يحيا بيننا بعضا من التقدير وبعضا من الحب فهو منا ونحن منه حتى مع أولئك الذين يختلفون معه في الرأي لا ضير عليهم من حبه ووده وإلا لما قال الأقدمون إن الخلاف في الرأي لا يفسد للود قضية .

أم كان الأقدمون أحكم منا وأنصح وأكبر نفوسا وأرحب صدورا ؟

مهزلة دورينماتية

تلقيت من السفير السويسرى خطاب شكر موجهها إلى الأستاذ إبراهيم نافع رئيس مجلس إدارة الأهرام ورئيس التحرير. وفيه يشكر الأهرام على المأدبة الحافلة واللقاء التاريخى الذى استضاف فيه الأهرام الكاتب الكبير فردريتش دورينات والعائلة المسرحية المصرية على غداء كما يقول الخطاب (غداء ملكيا) .

والحق أنى وأنا جالس بين دورينات وزوجته المخرجة الالمانية شارلوت وأمامنا الحركة المسرحية الصوتية من كتاب ونقاد ومديرى فرق ونجمات ونجوم لم أملك نفسى من الإحساس بالسعادة . ذلك أن هذا الحدث حدث أن تجتمع العائلة المسرحية كلها لتحتفل بأكبر كاتب مسرحى أوربى معاصر فى زيارته للقاهرة مسألة ليست من قبيل البذخ كما تفضل بعض صغار الصنفحين وذكروا ولا هى من قبيل الأبهة الكاذبة . ولكنها هى بالضبط مانعنيه بكلمة « الثقافة » فالثقافة ليست كتباً يكتبها أناس ليقرأها أناس ، الثقافة بالأساس إحساس قوى يربط المهتمين بمصير يربطهم فى مختلف أنحاء العالم بفكرة إنسانية واحدة .

ولقد كنت فى سويسرا قد قضيت ساعات مع دورينات نتحدث فى شتى المواضيع ونشرت بعض الحديث على صفحات الأهرام ولا أذكر إن كنت قد

كسبت في تلك الأحاديث أنى قد دعوته لزيارة القاهرة أم لم أذكر فالواقع أنى كنت قد وجهت الدعوة فأجابنى بطريقته التى تبدو غير متحمسة : أنه قد قبلها وأنها من المنتظر أن تتم فى نوفمبر خاصة وأن زوجته المخرجة فى الشبكة التليفزيونية الالهائية الأوروبية تريد أن تصور فيلمًا عن مصر القديمة والحديثة .

لم أكن متأكدًا أن الدعوة ستم . ولكنى حين عدت إلى القاهرة اتصل بى مستر أرزمان القائم بالأعمال السويسرى ، كان السفير غير موجود وذكر لى أنه تلقى خطابًا من دورينات يؤكد فيه على أنه سيحضر إلى القاهرة فى نوفمبر .

وهنا وقعت فى حيص بيض ، فعلاقنى بالسيد وزير الثقافة السابق كان مجالها محكمة باب الخلق ولست فى سعة من الرزق تسمح لى باستضافة دورينات على نفقنى الخاصة ولا أستطيع الاقتراب من مؤسسة المسرح أوحق الثقافة الجماهيرية لتبنى تلك الدعوة فإذا يارب أفعل ؟

بعد بضعة أيام كنت فى المركز الثقافى الفرنسى فى زيارة لمعرض الكتاب أو بالضبط الكتب التى ألقت بالفرنسية عن مصر والبلاد العربية والإسلامية وهالنى عدد الكتب التى تبدأ من كتاب « وصف مصر » إلى الآن

وفى المركز وجدتنى وجها لوجه أمام الدكتور ممدوح البتاجى رئيس هيئة الاستعلامات وخطر لى أن أحدثه بالمشكلة التى أوقعت نفسى فيها فإذا بالرجل وبحاس زائد يقول لى : لا مشكلة ولا شىء من هذا القبيل ... ستولى هيئة الاستعلامات دعوة الكاتب الكبير واستضافته وعمل كل شىء من أجل أن

يأخذ هذا الكاتب العالمى فكرة حقيقية عن بلادنا ، ولكن قلت له إن هذا عمل وزارة الثقافة وأنت تعرف الوضع .

قال : من قال هذا ... إنه من صميم عمل هيئة الاستعلامات فعندنا إعلام داخلى للمصريين وإعلام خارجى تتولى به دعوة كبار الكتاب والصحفيين وهناك ميزانية وبرامج لهذا كله . وأن يأتى كاتب كدورينات لمصر حدث عالمى لا يمكن أن نتركه يمرّ، فإننى متأكد أنه إما أن يكتب كتابا أو سلسلة مقالات أو حتى مسرحية عن مصر، فصر بالنسبة للعقيلة الإبداعية الأوروبية تشكل مهبط وحى لا يمكن أن تمرّ عليه قريحة خلاقة دون أن يؤثر فيها بطريقة ما . وبعد اسبوع واحد كان الدكتور ممدوح البلتاجى قد نظم برنامجا متقنا للرحلة والإقامة وأرسل باسم الهيئة دعوة لدورينات وزوجته وكان القائم الأعمال ، السويسرى عندى فى مكتبى يناقش معى تفاصيل الندوات التى سيعقدها دورينات فى القاهرة واحدة فى الجامعة والأخرى فى لقاء مع العائلة الثقافية فى الأهرام وللثالثة ندوة مفتوحة فى فندق شيراتون الجزيرة حيث يقيم والرابعة فى معهد جوته الألمانى ، كان هذا الكلام فى يوليو من هذا العام وكنت قد وعدت دورينات أن أقدم له عملا من أعماله التى ترجمت وقدمت على مسارح القاهرة «أربعة أعمال» وهكذا اتصلت بالمسؤولين فى هيئة المسرح لتحضير عمل يعرض أمامه باللغة العربية واخترت المخرج الفنان سمير العصفورى ليقدم هذا العمل باعتباره أول من أخرج مسرحا لدورينات فى مصر واختار سمير أن يقدم مسرحية «الشهاب» لقصرها من ناحية ولحدودية ممثلها من ناحية أخرى .

وفى نفس الوقت فاتحت الأستاذ إبراهيم نافع فى حفل غداء . نقيمه على

شرف الرجل في الأهرام عندنا وقد أسعدنى حقا أن قال لى أن كل إمكانيات
الأهرام تحت تصرفك ...

هكذا ترتب كل شيء .

وبدأت الشهور تتوالى أغسطس ثم سبتمبر ثم أكتوبر ... وكان وزير الثقافة
قد تغير وجاء الصديق الكبير الدكتور أحمد هيكل وزيرا جديدا ومتحمسا .
وذهبت للقائه وأعدت عليه قصة دورينات والمسرحية التي يجب أن تقدم
فذكر لى أن الدكتور سمير سرحان اتفق مع سمير العصفورى على كل شيء وأن
بروفات المسرحية قائمة على قدم وساق .

وبعد أسبوع اتصل لى الأستاذ سمير العصفورى وقال لى إنه رأى أن عرض
الشهاب غير ممكن وأنه اختار مخرجا من تلاميذه ليقدم عرضا يستغرق ساعة
يستعرض فيه مقطعا عرضيا لكل أعمال دورينات .

الحقيقة دهشت فدورينات كتب ما لا يقل عن الثلاثين عملا وكيف
ستضع هذا المقطع العرضى لكل تلك الأعمال . ولكن لثقنى فى قدرة سمير
العصفورى قلت : أنت المسئول ... وأنت وما تراه ...

وقبل وصول دورينات بأسبوع لعب الفأر فى عبنى فاتفقت بالدكتور سمير
سرحان أطمئن على العرض ، فإذا به يذكر أن سمير العصفورى قد ذهب ليحضر
مهرجان قرطاج فى تونس ، وأن العرض لن يقدم .

وأحسست بجانب كبير من كارثتنا المسرحية يتبدى على أشبع صورة ..

كارثة كانت قد بلغت دورينات نفسه وهو لا يزال فى سويسرا فقد كانت

أول كلماته لى حين قابلته فى المطار أن قال إنه حزين لأن العرض المسرحى الذى
فقد كنت فعلا أريد أن اتفرج على دورينات بالعربية .

وغرقت فى خجل لما آلت إليه أمورنا المسرحية والثقافية .

وغرقت فى خجل أكثر حين عرفت أن أحدا لم يحاسب على ما حدث
ولا وجه لوما لأحد، ومرت المسائل وكأنها لعب عيال تأتى بكاتب عالمى من
النادر أن يغادر بلده أو يحضر عروضه فى البلاد الأخرى ونعده بتقديم عمل
مسرحى له ثم إذا بنا فى آخر لحظة وبكل استهتار هكذا نقول له معلش
تتعوض .. المرة الجاية إن شاء الله .

لقد كانت الزيارة ناجحة تماما من الناحية الثقافية والاجتماعية فاشلة تماما
من الناحية المسرحية والمناقشة المسرحية، وربما كان الخطأ خطئى إذ اعتمدت على
أن لدينا مسئولين عن هذا كله وعملهم أن يضعوا هذا ولا أقوم أنا أو غيرى بكل
العمل . لقد حرصت على أن أحضر أقل عدد من الندوات والحوارات التى
أجراها دورينات مع التليفزيونيين ومع الجامعيين ومع المثقفين لأنى اعتقدت أننى
بدعوى دورينات للقاهرة وتلييته الدعوة يصبح من عدم اللياقة أن أحشر نفسى
فى كل كبيرة وصغيرة .

عذرا أيها الكاتب العظيم .

وقلبى معك يادكتور ميكل فى وزارة اختلط فيها كل شىء بكل شىء ، و
بعد فيها مسئول واحد تستطيع أن تطلعن إلى كلامه أو إلى وعده .

الأب الغائب

منذ مدة ، وحين بدأنا نقرأ عن الحوادث الغريبة التي بدأت تحدث في مجتمعاتنا وتجمعاتنا . أب يقتل ابنه ، أم تقتل ابنها وزوجها بالتعاون مع ابنتها ابن مثقف يقتل أباه وأمه رميا بالرصاص بزعم الإشفاق عليهما من الحياة السيئة التي تنتظرهما وتنتظره .

وقد كان من السهل على كل منا أن يمسك بكل حادث على حدة ، ويحلله ويصل في تحليلاته إلى ما شاء له الله .

فمن قائل إنها تقاليد الغرب (الملعونة) التي أدخلت تتسرب إلى مجتمعاتنا عبر المسلسلات وشاشات التليفزيون والسينما ، ومن قائل إنها الدخول في العصر الصناعي وضربته المفروضة علينا ، شتت أم أبينا ، ضريبة التقدم . ومن قائل إنها حالات - والحمد لله - فردية نتيجة ظروف كل أسرة على حدة وكل تربية على حدة .

وكنيت على مهل ، كأنما يحتر الجمل ما اختزنه داخل معدته من مواد ، أحاول أن أمضم هذه الأفكار كلها محاولاً أن أعثر لها على جواب أو أدرك إذا كان أحد الأجوبة السابقة هو الجواب الشافي .

ولكنى لم أستطع ..

فلم يستطع أى من الأجوبة السابقة أن يشق غليلي ، ذلك أنه إذا كان الأمر أمر نزية فردية في ذلك البيت أو ذلك ، فكثرة توالى الأحداث والبشاعة التي كانت تتم بها واللاوحمة واللاهودة وما يقرب من حالة فقدان الانتماء إلى الجنس البشرى كل هذا يربطه خيط «عام» ، خيط لا تستطيع إدراكه للوهلة الأولى ولا تستطيع إدراكه حتى بعد إعمال طويل للفكر والتأمل كما ذكرت .. شيء خطير عميق دقيق لم نستطع أن نصل إليه كمفكرين أو انثربولوجيين أو علماء نفس .

إلى أن بدأت أعرف هذه القصص والحوادث على حقيقتها وأستفهم وأغرق في الاستفهام ، لأدرك أخيرا .. وأخيرا جدا .. بدأت خيوط فجر المشكلة تتبدى ، فقد اكتشفت أن هناك في تلك العائلات عاملا مشتركا واحدا لا يتغير فيها جميعا ، ذلك هو الأب أو بالأصح غياب الأب ، أو على وجه أكثر دقة دور الأب في ارتكاب تلك الجرائم .

اكتشفت هذا رغم أن كل تلك الحوادث لم يكن الأب فيها هو قاتل الابن أو الأم أو البنت ، بل كان طوال الوقت هو المقتول أو المذبوح أو المدحرج رأسه أسفل السرير ، بينما الزوجة والعشيق نائمان ملء الجفون فوقه .

وهنا بدأت أتأمل المشكلة من زاوية جديدة تماما بل أحسست أنى قد وضعت يدي على قلب المشكلة ، الأب المصرى أو العربى بشكل عام

فقد لاحظت أن كل هذه الجرائم كان الابن فيها أو كانت الزوجة بعيدة عن زوجها ، فهو إما يعمل في إحدى البلاد العربية ، غائب له سنين يلهث

ليوفر للعائلة ، أكلها وملبسها ومنزلها ، وهو إما في مصر مثلاً ، ولكنه يعمل في الصحراء أو الوادي الجديد ، أو على العموم بعيداً عن مقر الأسرة ، فهذا الشاب الذي أطلق عشرين طليقة على والدته كانت أمه مذبعة تعمل في قطر ، وكان أبوه هناك ، ونشأ الصبي وأصبح شاباً ، وهما بعيدان عنه تماماً ولم يعودا إليه إلا بعد أن كبر ودخل كلية الطب .

وانتهت تماماً تلك الفترة التي يحتاج فيها الابن إلى أمه وأبيه فترة التكوين النفسي الأولى ، فترة مثلها مثل لبن الأم لا سبيل إلى تعويضها حتى بحنان العالم كله أو نقوده تتدفق من جيب الشاب بعدما جاوز مرحلة الحضانة النفسية التي تشكل تكوينه الداخلي ونواذعه .

وهذه المرأة التي كان زوجها يعمل في السعودية وقد ترك لها ستة أطفال معلقين في رقبتها واستغاثت به أكثر من مرة لتلحقه هناك ، ويعيشوا جميعاً معاً ولكنه رد عليها بقول : إن تكاليف المعيشة مرتفعة جداً ، وانهم إذا جاءوا وعاشوا معه فلن يوفر ملياً واحداً ، وكانت النتيجة أنه صحيح بنى لها منزلاً مستشقق وكتبه باسمها ، ولكنها هي بنفسها كانت قد ضاعت وتعرفت بسائق تاكسي الذي استولى عليها وعلى ابنتها وعلى أولادها أيضاً ، وبالذات على ابنتها الشابة التي عاونتها في قتل أنحيا مع العشيق السائق ودفنوه وذهبوا جميعاً إلى السجن بعد هذا .

وحين عاد الزوج قابله بجرعة (الاثيفان) مذابة في الشاي وخدروه وذبحوه هو الآخر .

هكذا سوف نجد خلف كل مأساة من تلك المآسى (غياب) الأب هو السبب القوى المباشر.

وهو ليس أبا واحدا ، هناك أكثر من مليوني أب مصرى يعملون في الخارج وفي الدول العربية تاركين عائلاتهم في مصر ، ولا يتركونها لفترة عام أو حتى بضعة أعوام ، ولكن بالسنين الطويلة يفعلون .

قال لى أب من هؤلاء : لقد تركت ابنتى وهى تلميذة فى المرحلة الابتدائية وحين عدت كانت قد أصبحت طالبة فى الجامعة ، وكنا نجلس معا أنا وهى فلا نكاد نجد موضوعا نتحدث فيه .

تقطعت الخيوط تماما ، وبالذات تلك الخيوط التى تربط الابنة بالأب أو الابن بالأب . لم يعد يربط بيننا إلا تلك الهدايا التى يتوقعونها بشغف غير زائد مبدین دائما نقدنا للألوان وللأنواع التى اختارها .

تصوروا ...

مليوناً أب ، أى مليوناً أسرة ، إذا كان متوسط تعداد كل أسرة خمسة يكون المجموع عشرة ملايين معظمهم من الأطفال والصبية والمراهقات والزوجات المحرومات من أزواجهن لفترات طويلة قد تتعدى العام .

كان محتماً فى ظل وضع كهذا أن « تنفك » الأسرة تماما ، فصحيح أن الأب لا يلعب الدور الأكبر فى تربية الأطفال بالذات ، وإنما الأم هى التى تقوم بهذا الدور . ولكن للأب دورا آخر أعمق أهمية بكثير . إذ هو ليس مجرد ساق ثانية تمشى عليها الأسرة مع الساق الأولى : الأم .. إنه العمود الفقري الذى يصلب حبل العائلة ويحمل منها كلا مناسكا . هو الرمز للكيان الواحد ، ولذلك

فالأطفال يسمون باسمه ويفخرون بالانتماء إليه : من هذا ؟ هذا ابن فلان بل إنه في مجتمعاتنا العربية إذا نسب الابن أو الأبنة إلى الأم اعتبر هذا من قبيل السباب ، وأيضا لهذا كله يعتبر الأب أكثر درجة في الأهمية .

إن الأب هو «البطل» في نظر أبنائه وبناته وزوجته ، اخترأى طفل فقيرا كان أو غنيا ، راضيا عن أبيه أو ساخطا واسأله : من يختار من بين كل الناس «بطلا» يتبعه ويطيعه ، وستجده يختار بالفطرة بطله : أباه ، وفي ظل قيادته تحل كل المشكلات ، وتنسجم كل المتناقضات ويجرس بحسمه كل الأصوات .

الأم تطعم ، «ماما» تحن وتعطف ، ولكن الأب هو الذي يصنع المثل الأعلى ويقلده الابن دون أن يعرف أو يدري ، ويرى فيه رمزا لرجوته المقبلة وترى فيه البنت نموذجا لما تحب أن يكون عليه عريسها ومن تحبه ، أما الزوجة فحاجتها للأب لا تقل عن حاجة أولادها ، بل حاجتها إلى الأب ملحة ، حتى لو كان مريضا أو عجوزا أو بلا عمل ، ومن هنا جاء المثل « ضل راجل ولا ضل حيلة » أو ذلك الذي تقوله الزوجة إذا مات زوجها : ياسبعي

فعلا الأب هو السبع وهو الأسد وهو القادر وهو العمود . وإذا كانت الظروف الاقتصادية قد أجبرت كثيرا من الآباء - ملايين الآباء - على ترك عائلاتهم والسفر بلاد الله لخلق الله بحشا عن لقمة العيش فإن ظروف بقية العالم العربي فعلت بالأب ربما أكثر بكثير مما فعله الفقري بعض الآباء . فالمال إغراء قوى على مزيد من الربح والغنى . وقد انشغل الأب العربي الغنى بتنمية ثروته وبالأسفار من أجل أعماله المتراصة ، شغله المال عن الأسرة ، بل استعاض بالمال عن الأسرة ، وأصبحت أسرته الحقيقية هي ودائعه في البنوك

التي يطمئن على سعر فائدتها كل صباح ، وقبل أن يتلفظ بكلمة مع أفراد أسرته
الحقيقيين وانشغل بأسعار الأسهم والمستندات عن أقرب الناس إليه ، هو صحيح
لم يرغب في بلاد أخرى ليعمل ، لكنه حاضر في بلده بين أهله وأسرته ، ولكنه
ذلك الحاضر الغائب ، وما أبشع الأب حين يكون حاضرا غائبا ، فعل الأقل
في حالة الغيبة . حجتة معه كما يقولون ، أما وهو حاضر وفي الوقت نفسه غائب
فإن الوضع النفسي لأولاده وزوجته يكون أقسى وأمرّ .

* *

وليس هذا الوضع مقصورا على مصر أو على بلادنا العربية ، إنه وضع العالم
الرأسمالي ، حتى الاشتراكي كله ، فكثير من الأسر الأمريكية تعاني من هروب
الأب عقب الطفل الأول أو الثاني وحالات الطلاق والانفصال الجسدي أو
الفعلى ما أكثرها لقد كنت في لوس انجليس وأتبع لي الاختلاط بكثير من الأسر
الأمريكية ، والمضحك أني لم أجد بينها رجلا تزوج لمرة واحدة أو زوجة تزوجت
رجلا واحدا . هناك حركة تبادل مواقع قائمة على قدم وساق بين الأزواج
والزوجات والمطلقات والأرامل ..

حركة يدفع ثمنها ، أول من يدفع : الأولاد .. فتقريبا ينشأ الأولاد بلا
أسرة ..

فالزوجة مشغولة بالاستمتاع بزوجيتها ، والأب مشغول بعمله ، والأولاد
متروكون للحاضنة أو المربية وللمدارس والجالسات لأطفال في أحيان ، وهي
كلها أشياء لا تعوض مثقال ذرة ربع معشار الأبوة والأمومة الحقيقية .. ومن أجل .

هذا يهرب الأطفال مبكرا من أسرهم في الثانية عشرة أو الرابعة عشرة وربما أقل بكثير..

يهربون لأنهم يريدون (أسرة) وإذا كانت أسرهم الحقيقية قد نبذتهم فإنهم يلجئون إلى تكوين «أسرة» أو «عصابات» من الأولاد والبنات يكونون آباء وأمهات لبعضهم البعض..

ومن أجل هذا السبب وحده تكثر التقاليع ويتبوأ شاب معتوه مثل (مانسون) الذي قتل شارون تيت وآخرين ، يتبوأ مكانة الأب ويسيطر سيطرة سيئة على الشبان والفتيات كأنه أصبح المعبود الأول . ولنفس هذا السبب أيضا . وبطريقة أخرى يهرب أولادنا في عالمنا العربي والإسلامي (الغنى والفقير على حد سواء) ويذهبون وينضمون إلى الجماعات الدينية حتى يصبح (الأمير) هو الأب أو رمز الأب أو صورة الأب وكلمته هي العليا ، ومن ناحية أخرى يهربون إلى شلل المخدرات والجلسات والطرق المشبوهة التي تصبح بمثابة عائلاتهم أو بالأصح تعويضا عن عائلاتهم الحقيقية .

* * *

وليس الأب الفعلي هو المشكلة في عالمنا العربي . ولكن رئيس الدولة والدولة هما بمثابة الأب ، والرئيس في العمل يقوم مقام الأب حتى الأم أحيانا تقوم بدور الأب ، ولكن هذا كله لا يعني أبداً عن الأب الحقيقي إنما هي تعويضات وإسقاطات ومحاولات دائبة من شباننا وشاباتنا للبحث عن هذا الشبح المفقود : الأب ..

وإذا كان معظمنا سائحين على الحكومات ورؤساء الحكومات وشيوخ القبائل «والعمد» والكبار بشكل عام ، فليس السبب كامنا في هؤلاء مجد ذاتهم إنما السبب أننا نبحث فيهم عن آباءنا المفقودين ، بحنانهم ورحمتهم ، برأيهم السديد وحكمتهم ، بهذا الشعور النبيل الجميل الذي يدفعك حين تحس بالمعزة والمحبة والمودة والإكبار لإنسان ما إن تقول له : ياه دانت زى أبويا !

بالحب ، بالحنان ، بالحسم ساعة الحسم ، بهدوء الحنان حين نحتاج إلى الحنان ، وتكشيرة العبوس المحب حين نحتاج إلى حب عبوس نبحث فيهم عن آباءنا المفقودين هؤلاء ، فلا نجدهم فتزداد سخطا عليهم ، بينما سخطنا الأكبر ينصب على آباءنا الحقيقيين الذين تركونا بدورا بلا سيقان وسيقان بلا أوراق ، وأوراقا وسيقان وبدورا بلا ثمر فكيف يعود لنا أبونا الغائب .

كيف ؟

ذلك هو السؤال .

ملعبة التلفزيون

... أعجبتني الحكاية التي قصها علينا الأديب عبد الله الطوخي وهو يروي لنا كيف كان جالسا مع عائلته وفي منزله ثم فجأة سمع ضجعة شديدة وصراخا وعويلا في الشقة المجاورة فأسرع ودق على باب جاره لتفتح له ابنته الباب ويحد الرجل صاحب الشقة ، وهو ضخم الجثة فارح الطول ينال بقطعة حديد على جهاز التلفزيون في بيته يحطمه ويفتته قطعاً قطعاً أمام زوجته وأبنائه وبناته دون مراعاة لاستعطافاتهم ورجواتهم وهم يقولون :

والنبي يا بابا ... بلاش تكسره بلاش ... فيرد عليهم بصوت عال كالرعد قائلا :

أنا مش بابا .. هذا هو بابا « قاصدا جهاز التلفزيون » منالاً عليه بشدة أكثر تحطيا وتكسيرا ، حتى فنته تماما .

أعجبتني القصة ، لا لأن إنسانا وجد في نفسه الشجاعة على أن ينال على جهاز تلفزيون مصري أو عربي تحطيا وتكسيرا رغم فداحة ثمنه ، ولأن غير ما قد شبت بين أب حقيقى تزوج وخلف ، وأنجب أولادا وبنات لا ليعيشوا في التبات والنبات - ويستمتع بهم وبصحبتهم ، وإنما ليتسلمهم أب آخر خلقتهم

التكنولوجيا ليتولى قيادتهم وتربيتهم ويمتص كل أوقانهم التي كان مفروضا أن يقضوها مع آبائهم وأمهاتهم .

أعجبتني القصة لسبب قد لا يخطر على البال ، لأنها في حقيقة أمرها قصة مواجهة صريحة وواضحة وعنيفة بين العصر الذي نحيا فيه والعصر الذي تربي عليه آباء هذه الأيام وأمهات هذا العصر .

منذ فجر البشرية كان الأب هو أول مدرسة يدخلها طفله ليتعلم منه القيم والسلوك والأخلاق ، وربما الحرفة والثقافة والمعرفة والإدراك . . .

وكان لكل قبيلة من القبائل تراثها الشفوي المرنى الذي تحكيه الجدة لأبنائها وأحفادها ، ليحكوه بدورهم لأولادهم وأحفادهم .

ثم بظهور المسرح ثم الكتاب ثم الجريدة ، بدأت آباء أخرى تشارك الأب الحقيقي في صياغة شخصية وسلوك ومدارك ابنه ، وحين جاءت السينما بعد هذا عمقت تلك المشاركة إلى حد كبير ، ولكنها كانت مشاركة أقرب إلى التعليم التخيلي ، منها إلى الأب أو المدرس أو المربي الحقيقي ، ولهذا سميناها نحن العرب «الحياة» . أما الكارثة الكبرى الحقيقية ، أما الانقلاب العظيم الداهم فقد جاء مع عصر التلفزيون ، ذلك أنه لم يأت ليكون بعيدا عن تناول الأسرة أو محيطها . وإنما جاء ليحتل صميم المركز في قلب الأسرة ، وهو مركز ثابت غير متحرك ، وغير صامت . مركز دائم التحدث والجذب ، دائم الوجود ، عميق التأثير إلى أبعد حد ، حتى أن أطلاقنا أصبحوا يحفظون كلمات الإعلانات وأغانيها أكثر بكثير مما يحفظون آيات من القرآن الكريم ، أو ملخص قصة من قصص الأطفال المتداولة .

جاء ساحقا ماحقا فاصلا تماما بين عصرين ، عصر ما قبل التلفزيون وعصر ما بعد التلفزيون عصر أطفال ما قبل التلفزيون وعصر الجيل الذى ربا التلفزيون .

وجاء دكتاتوريا طاغيا أيضا ، انكمش بحواره الأرب الحقيقى فى ركن لا يملك حتى أن يتكلم أو يقاطع ما يدور فيه ، فما أسرع ما ترتفع السنة أطفاله وأزواجه طالبة منه أن يسكت لأن التلفزيون يتكلم ، أو حتى يقطع عليهم ما يتابعونه ولو بغير خطير بهم الأسرة جميعا وقد يغير مصير العائلة كلها .

جاء ليكون المتحدث الأول والكل له مصغون ، والنموذج الأول للتصرف ولل كلام ولل فعل والكل له مقلدون ، وحتى النموذج الأول للتسريحات والتجملات ، وطريقة النطق والكل لا يفعلون سوى تقليده .

وتلفزيون من ، ذلك الذى جاء ؟

بيس تلفزيونا عربيا ، لا صناعة ، ولا اسما ، ولا حتى محتوى ، إذ جاء أحدث ما تفتق عنه العقل الغربى من علم الالكترونيات « والترانزورسيات » « علم تحويل الصوت والصورة إلى كهرباء وبالعكس » وجاء مزودا بمساعد لا يقل عنه خطورة وبأسا هو « الفيديو كاسيت » يجمع كل ما افتقدته العائلة من إرسال التلفزيون العادى « ويضيف إليه أفلاما وقصصا وألعابا وكل ما قد يخطر ولا يخطر على البال .

وهنا وجدنا أنفسنا نحن آباء هذا العصر وأمهاته نواجه عملاقا ولا جن ألف ليلة بكل ما لديه من شيبك لييك أنا بين يديك والعالم كله بين يديك ، والحب بكه وبكافة أشكاله رهن إشارتك والتقاليع تقاليعه لا ينتهى أبدا لها حال .

مفاجأة كبرى ، لم يكن يتوقعها العالم الأول نفسه ، فلما بالك ونحن حين جاءتنا لا تزال نحيا ربما في العالم الرابع أو الخامس .

وأنا أذكر أول مرة رأيت فيها التلفزيون وجهها لوجه وكان في معرض في القاهرة في عام ٥٨ . ومازلت أذكر تلك الدهشة المروعة التي أصابني . حين رأيت صورتي «وقد كانت هناك كاميرا تلفزيونية مسلطة على المشاهدين لجهاز الاستقبال» رأيت صورتي بالأبيض والأسود مرتسمة على تلك الشاشة الصغيرة الساحرة . يومها أخذت الأمر أخذ مثقف متحضر ، وقلت إن التقدم البشري ليس له أبدا من حدود ، وأنى إنما أشاهد معجزة كبرى لهذا التقدم ، أى أننى روعت للتقدم التكنولوجي الإلكتروني الذي أنتج هذا الجهاز .

وفي ذلك الوقت لم أنكر أبدا فيما يمكن أن يحتويه هذا الجهاز بعد هذا وينقله من مواد .

وما هي إلا بضعة شهور حتى أصبح هناك إرسال تلفزيوني ، لافى مصر فقط . ولكن في معظم البلاد العربية . وحتى تدفق على المشاهد العربي طوفان من إنتاج أوربي أو إنتاج عربي يحاول أن يقلد ويمشى على خطى الإنتاج الأوربي بطريقة لا يد للإنسان معها بطول المشاهدة ومداومتها نظرا لروعيتها وخبرتها أن يحدث له غسيل مخ إجباري بحيث تمحى من عقله مفهومات كثيرة ورثها أو تعلمها ، وتحلّ أشياء جديدة تحمل المكونات النفسية والاجتماعية والسياسية لمجتمعات مختلفة عن مجتمعتنا تمام الاختلاف .

حتى كاد الأمر في النهاية ينتهي إلى أن تنمحي تماما من ذاكرتنا كل ما توارثناه من مفهومات وتعاليم وأحاديث أمهات وجدات ونصائح آباء وكبار

ونولّى وجوهنا وعقولنا مفتوحة على مصراعها لتلتهم بلهفة ذلك الطوفان القادم .
وفجأة أيضا . دون أن ندري ، نلمح على أبنائنا وبناتنا الأكثر استعدادا
للتقبل ، والأقل استيعابا للتراث ، تصرفات لا تبدو غريبة كثيراً عن التصرفات
التي تراها معروضة في تليفزيوناتنا ، ولكنها تبدو غريبة ، تماما إذا ما قورنت
بما درجنا عليه نحن من أخلاق وقيم وتصرفات .

وكان مفروضا حينذاك أن تنشأ معركة بيننا - نحن الآباء - وبين ذلك الوافد
المكسح ، وأعتقد أن معارك فردية وعائلية كثيرة قد نشبت متفرقة هنا وهناك
ولكنها كانت دائما معارك خاسرة ، كنا نحن الذين نخسرنا ، ذلك أن التليفزيون
كان قد ربح المعركة ، تماما وأخذ أولادنا وأجيالنا الجديدة إلى صفه وأصبحنا
نحن مجرد قلة «متخلفة» عن الركب ، «متحجرة» أمام التحضر والتأمرك
والتأورب ، نعيش في عصر غير العصر ، ونحاول جرّ أجيال جرارة بأكملها إلى
هذا العصر الغابر .

وكان لابد بالطبع يبلغ اليأس ببعض الآباء ، مثل أُنحنّا الذي اندار على
الجهاز يدكه دكا - أن يحاول حل المشكلة بتعطيم الآلة ، وهو ليس فقط اليأس
وأغبي أنواع الحلول . ولكنه يدل تماما على أن هذا النوع من الآباء قد تخلف عن
العصر فعلا ، وواجب عليه أن يحطم السيارة هي الأخرى والطائرة ، وأن يعود
القهقري يركب الناقة وينتقل بالحمار .

* * *

فما هو الحل ، يا ترى إذا لم يكن تعطيم كل تلك الأجهزة المتقدمة من
تليفزيون وسيارة وكمبيوتر ، وفيديو... الخ .

الحل بسيط للغاية يا سادتنا الآباء والمربين والحريصين على التراث والتقاليد .
فالتليفزيون في ذاته كجهاز فقه من قم الهندسة البشرية ، وآلة اعجاز
تكنولوجى ولا عيب فيه بالمره .

المشكلة هى فقط «محتوى» هذا الجهاز وما يشه .

وبلادنا العربية قد اشترت من أوروبا واليابان وأميركا ملايين من أجهزة
التليفزيون والفيديو ، ولكن ، كان عليها إرسال بعثات «بشرية» لدراسة المواد
التي يمكن لهذا الجهاز أن يشه ، وأثر هذه المواد على عقول كل الأجيال من
الأطفال إلى الشيوخ وأثره بالذات على مجتمعات لم تمر حتى بفترة الراديو
أو المسرح أو السينما . وإنما فجأة من حديث الجذات وحواديتهم انتقلت إلى عصر
البث التليفزيونى وحلقات دالاس ، ومونت كارلوشو .

كان علينا أن نتق ونحضر «كادرا» من فتيان موهوبين ، يدرسون ما فعله
صناع البرامج الممتازة في التليفزيونات الأخرى ، وبالذات التليفزيون البريطانى
والتليفزيونات الأوروبية ، ثم يتعلمون كيف يقدمون المقابل العربى الصالح
والشاحذ والمنبه للعقل العربى ، بكافة مكوناته وأجياله ، و«يكتبون»
النصوص ، لأقول ذات القيم الأخلاقية الرفيعة كما يقول عتاة المتفقهين
ولكن تلك التي تستلهم قيمنا وتراثنا وحاضرنا وتصنع منها «فنا» تليفزيونيا حين
نشاهده يدفعنا إلى كل ما هو أرفع وأمتع وأنفع .

إن في كل مرة أذهب إلى بريطانيا ، ودائما أوقت ميعاد وصولى ، يوم
السبت لأستريح في عطلة الأسبوع ثم أبدأ في قضاء مصالحى يوم الإثنين بداية
الأسبوع كنت ما أكاد أجلس في حجرتى في الفندق وأفتح الجهاز حتى أكاد

أتسمر بجانبه لأريد أن أتحرك، ذلك في كل برنامج «أتعلم منه» شيئا ممتعا جديدا ، و«أعرف» منه تسلية عظمى ، ما لم أكن أبدا أعرفه ، و«أرى» أشياء كنت أسمع عنها وطالما حلمت برؤيتها رأى العين ، حتى أنني كنت لا أغلق التلفزيون حين يتحول الارسال إلى ما يسمونه جامعة الهواء حيث تدرس مواد الرياضة البحتة والطبيعة والكيمياء والذرة والفلك ، بكل ما نحصل من صعوبة وتعقيدات بطريقة تليفزيونية مرسومة ، ومسهلة بحيث يمكن لأي كائن فابالك بمن لديه الحد الأدنى من المعرفة أن يتابعها ويستوعبها ويستمتع بما أضيف إليه من معارف ممتعة لا تحققها له أي «ديناسي» أو «دالاس» أو رجل أومرأة «لستة بليون دولار» أقسم أنني رغم شغفي الشديد بالخروج كنت لأغادر الغرفة خلال كل عطلة نهاية الأسبوع لأنني لم أكن بصراحة أستطيع قطع متعة المشاهدة الممتعة المفيدة .



نحن إذن قد استوردنا آلات وبرامج مصكوكة ، ولم نفعل الشيء الذي يجب أن نكون قد قنا بفعله قبل استيراد تلك المعدات والأدوات والبرامج ألا وهو أن نكتشف مادتنا التليفزيونية نحن ، نفننا ، ونقدمها ونطورها ، ونتعلم كيف نفننا أكثر ونطورها أكثر وأكثر .

وأحسب أننا قد «استرينا» من برامجنا المستوردة ، وآن الأوان لنتج نحن برامجنا ، وهي ليست برامج استعراضية ، أو ترفيهية أو مكلفة ، إنها أبسط من هذا بكثير . إنها برامج حية وبسيطة ويشارك فيها المواطنون جميعا يناقشون مشاكلهم . «تقريبا ربع برامج التلفزيون البريطاني مخصصة لمشاكل المدارس

والتلامذة وأولياء الأمور والمدرسين وأوجه التقصير ، من كل حى أو بلد على حدة ، بل أحيانا من كل مدرسة » ، مناقشة أى قضية عامة يختلف أو يتفق فيها المجتمع مع وجهة النظر الرسمية أو غير الرسمية ، باختصار حولوا التلفزيون هناك إلى مجلس شعبى ولمصلحة الشعب ومهرجان شعبى وأداة شعبية لمناقشة الشعب بأفراد من الشعب ولمصلحة الشعب ، وبهذا وصلوا إلى ما يمكن تسميته بكل أمانة إلى الديمقراطية التلفزيونية حتى أصبحت الديمقراطية البرلمانية يجوارها وكأنها مجالس سفطائية . فالقوة الحقيقية والقرارات الحقيقية وحتى الانتخابات الحقيقية وحلول المشاكل الحقيقية تأتي من التلفزيون ومن الشعب الذى أحال التلفزيون من لعبة إلى جهاز جاد يجمعه فى بوتقة واحدة ويضع السائل والمستول والحاكم والمحكوم فى حيز واحد وأمام أعين جمهور واع فاحص علمه التلفزيون كيف يعى وكيف يفرق بين الزيف والحقيقة ، ومباشرة ومن التو واللحظة يحكم ويكون حكمه فى معظم الأحوال عادلا وصادقا ونابعا من قلب الحقيقة والشعب .

فتى نحيل نحن العرب تلك الألعاب التلفزيونية إلى وسائل حضارية جادة تسوس حياتنا وتقومها وتدفعها إلى الأرفع والأحسن . أم سنظل كالأطفال فى أوروبا ، نستعمل التلفزيون والفيديو وسائل ألعاب وتضييع وقت ومراهنات فكرية وعاطفية وجسدية وحلقات درامية ما أنزل الله بها من سلطان ، بل الحقيقة أنه أنزل بها كثيرا من اللعنات التى للأسف تصيب أبناءنا البرآء وقلوبهم الخضراء الغضة وعقولهم التى ستنتهى فى الغالب إلى أن تصبح لاشرقية ولا غربية ولا أى شيئية .

وحتى لا تكون النهاية أن يقوم كل رب أسرة بأن ينال تحطما على جهاز
عظيم نحيا في عصره هو جهاز التلفزيون .

فلى يحدث هذا ؟
بالله عليكم وأرجوكم متى ؟

* * *

وهوى النجم

أبلغ (مقالة) رثاء قرأتها عن حسن فؤاد كانت رسما كاريكاتوريا لرسام شاب من تلامذة حسن فؤاد في زميلتنا صباح الخير، كانت صورة لحسن فؤاد واقفا عاليا، وكأنا ينظر من الملأ الأعلى وعلى فيه ابتسامته الغريبة تلك الساخرة الراقية المشاركة المتفائلة التي تحمل أقل القليل من المرارة، كان حسن فؤاد ينظر من عليائه ويقول لزملائه وأصدقائه وتلامذته وأبنائه الذين أقاموا له أروع جنازة على صفحات العدد الخاص من صباح الخير، ويقول ردا على البكاء والنحيب: جرى إليه ياجعاعة... مانا لسه معاكم آهه.. إلحق أنى حين قرأت في الاسكندرية خبر وفاته أصبت بما يشبه (التولة) وفقط حين قرأت العدد ووصلت إلى هذا الرسم، بكيت، فحسن فؤاد صديق العمر، عرفته وأنا طالب طب وقد كان خريجا حديثا من الفنون وذات يوم جامعي صديقاى محمد يسرى أحمد وصلاح حافظ وقالوا لي سنقابل اليوم فنانا عبقرى، وإلى غرفة على «سطوح» بيت في المنيرة ذهب وهناك وجدت شابا تحس للوهلة الأولى أنه أكبر من سنه وأكبر منا جميعا لاهث الأنفاس فقد كان يعانى من نوبات ربو حادة تنتابه، شامخ الأنف دائما وكأنا يلتقط أعلى طبقات هواء الحجرة، وكان يتحدث، وتحدث، وخرج

كلامه غريبا على سمعى ، أنا الذى كنت لا أزال أتهجى أحرف الفن الأولى والأدب ، كلام غريب ، رؤية جديدة تماما لفن جديد وعالم جديد ، ببساطة شديدة يتحدث ، وببساطة أشد يقلب كل مفهوماتنا الرومانسية عن الفن والناس رأسا على عقب ، ونخرجنا من عنده بعد الفجر ، ومنذ ليلتها بدأت علاقة من أنصب وأغنى وأروع مامرّ بجياني من علاقات ، ذلك أن حسن فؤاد لم يكن فنانا من ذلك النوع الذى ينكبّ على أعمال فنية محضة يزاومها ، كان يرسم أو ينحت أو يكتب ، إنه كان أولا وأساسا صانع فنانين ، كان المصانع التى تنتج المصانع ، ولهذا فإن من (خلقهم) حسن من الفنانين ، ومن (طوّرهم) ومن فتح أمامهم أبواب مفهومات جديدة للفن والحياة ، هؤلاء يشكلون العصب الرئيس للحركة الفنية والأدبية المصرية الحالية والتى قامت منذ الخمسينات ولا تزال تقوم بدورها الرائد إلى الآن .

طوال الأيام التى مضت منذ اختفائه المفاجيء وصورة حسن فؤاد بشكله المتميز وبذكائه الخلاق لا تفارقني ، فى صحرى ، أو منامى ، وكأن غيابه قد جعله أكثر حضورا ، وأنصح ضوئا ، وأقلب فى الصحافة المصرية فأجد نوره يشع فى كل مجالاتها وعلى لسان أقلام من اتجاهاتها كافة ، ذلك أن «حسن» على كثرة من عرف ، لم يعاد أبدا حتى أشد معارضيه فى رأى أو الاتجاه ، كان أكبر من أن يكره ، فقد كان يؤمن أن المخالفين فى رأى ليسوا شياطين أو حقراء ولكنهم بشر ومفاهيم ، ممكن بتغيير مفهوماتهم أن يتغيروا ، بل حتى أن يتخلوا عن عيوبهم أو يكفروا عن جرائمهم .. لم يكن يكره أبدا ، حتى أعداءه . غاب عنا حسن إذن ، غاب الجسد الإنسانى السمع الفنان الخلاق ، ولكنه فعلا ، وكما قال الرسم ، لا يزال موجودا فينا كلنا ، حتى فى جيلنا كله والأجيال

التي تلتها -ربما- دون أن يعرفوا -هو موجود فيهم وسحره باق لأن الفنانين الذين خلقهم ووجههم باقون يتوارثون رؤاه ليكونه ، ولكن الأعظم والأجل أن يستوحوا منه وشخصه ونخصاله وأفكاره ، خاصة وقد تحول من بشر على الأرض إلى نجم في السماء هوى إلى أعلى ، وأصبح ضوءه أشد وأخلد وأقوى .

وداعا حسن ..

وإلى أن نلتقاه .

جولة فى عقول القراء

جولة خطيرة ... وأنا مازلت لم أنته بعد من قراءة كل الخطابات رغم انتهائى من مئات كثيرة منها .. جولة خطيرة داخل العقل المصرى وفى أحيان كثيرة العربى ، وجدتني غارقا فيها ، جاءت الخطابات ردا على محاورتي التى بدأتها مع الأستاذ خالد محمد خالد حول مفهومه الأخير عن الحكم الإسلامى وتطبيق الشريعة ، والتى أجابني عنها وتدخل الدكتور فرج فودة مشكورا ثم أخيرا الأستاذ الكبير الدكتور فؤاد زكريا ، وهما هو الأهرام يعقد أكثر من ندوة تضم نخبة ممتازة من علماء المسلمين ومفكرهم وأخبارهم ..

جولة خطيرة لأثنى لأول مرة ألتقى هذا العدد الرهيب من الخطابات حول موضوع واحد وتجيئني خطابات من مختلف قطاعات الشعب بدءا من كبار رجال القضاء والسياسيين والقادة إلى تلامذة المدارس الثانوية وحتى الإعدادية إلى العمال والحرفيين وبعض الفلاحين والمزارعين ، وكم كان بودى - ولا يزال هذا قصدي - أن هدى تلك الرسائل إلى قادة الأحزاب السياسية ، وبالذات إلى مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام والجامعات لأنها بمثابة كشف بالأسلحة على الوجدان والعقل المصرين وأخذ فكرة مهمة عن محتوياته ومكوناته ، تلك التى لايتاج لنا رؤيتها فى معظم الأحيان ، ولندع الموضوع جانبا فسأبقى له

حالا ، وتتعرف أولا على شكل تلك الخطابات ، فقد لاحظت ارتقاء غريبا في أسلوب الحوار ، سواء معى أو ضدى ، ومنطقا هادئا في أحيان ، مشتعل الجذوة في أحيان أخرى ، ولكن دائما هناك (منطق) مّا وأساس حوار ، وهذا شيء مفرح حقا ، فقد كانت المعارضة للرأى تتخذ شكل السباب والالتهامات في معظم الأحيان ، أما هذه المرة فشئ غريب ألا أجد خطاب سباب واحدا ليس هذا فقط ، بل إن الجميع ، حتى من يعارضون يفترضون حسن النية في الكاتب وصدقه في الايمان بما يقول ، وأقصى تأنيب يرد هو دعوة الله سبحانه (لهدايته) .

نحن فعلا - مها نقدنا أنفسنا ، شعب متحضر حقا ، ولهذا فإنى أعتقد أن كل الدعاوى الداعية إلى التطرف دعاوى تزرع أو تسترعى في أرض مصر ، ولكنها دائما وأبدا تبقى بلا جذور فإن طبيعة شعبنا تكره من أعماق قلبها التعصب الأعمى المقيت ، فما بالك بالعنف المتعصب أو التعصب العنيف ، إنها موجات ، تشور - ربما لأسباب لاعلاقة لها ألبة بالقضية أو العقيدة أو الدين ، ولكن سرعان ما يثوب الشعب أو طائفته إلى الحكمة وتغلب عليه طبيعته المتحضرة . ليس عبثا إذن أننا أقدم أو من أقدم الشعوب الموجودة على سطح الأرض ، والقدم هنا هو العراقة البشرية ، وتراكم الخبرات والمعارف والثقافات ، بحيث تترسب طبقات التحضر بعضها فوق بعض ، وتؤدى في النهاية إلى إنساننا اليوم ، ذلك الإنسان الذى ما ذهبت إلى بلد أوروبى أو غير أوروبى وسألت الشخص أو الأشخاص الذين زاروا مصر عن أحسن ما أعجبهم فيها ، ولدهشنى كنت أسمع كلمة الأهرام أو أبي الهول أو المتحف أو أسوان الجميلة ، ولكن الإجماع على أن الشعب المصرى ودمائة طبعه وحلو معشره ورغبته المستمرة في محاولة مساعدة الغير والشهامة في

معاملة الغريب ، الإجماع على أن الشعب المصرى هو أجمل ما فى مصر ، وحتى حين حاولت مرة أن أختبر حماس كاتب سويسرى زار القاهرة ومكث فيها شهرا وقلت له : إن النظافة فى القاهرة سيئة كما لا بد أن لاحظت ، أجبني إجابة غريبة قائلا : إن القذارة فى القاهرة موجودة فى الشارع والحارة ، ولكن الشوارع هنا (يقصد سويسرا) نظيفة جدا كما ترى فى حين أن القذارة موجودة داخل العقول ، أما شعبكم فعقوله من الداخل أنظف بكثير من أية سويسرا

وأستطيع أن أقسم تلك الخطابات تقسيما رئيسيا وأقول : إن أكثر من ستين فى المائة منها تصور أنى ضد تطبيق الشرع الإلهى وأخذ يسوق حججه (لإقناعى) على هذا الأساس ، بالتفصيل والتحديد وأحيانا فى خطابات من خمسين صفحة !

أما الذى دهشت له حقا فهو أن هناك نسبة كبيرة جدا فهمت تماما ما أعنيه فيما ذهبت إليه وراحت بدورها تسوق حججها للدلالة على رأيها ، وكان كلا منهم يكتب مقالة أو بتصور أن خطابه سينشر ، وكم كان بوى أن أفعل مع هؤلاء وهؤلاء ، ولكن العمية مستحيلة تماما ، فالكم هائل والاستحالة مؤكدة ، أجل أدهشنى أن عددا كبيرا جدا من الناس أفرج هذا الحوار الذى دار بين الأستاذ خالد محمد خالد ويبنى قد أفرج عن آرائهم التى كانوا يحسونها إما خوفا وإما ترددا ولا مبالاة ، وإما عدم إدراك لخطورة المشكلة وأبعادها ، هؤلاء أسعدهم كسر هذا (التاب) أو الحرم الذى كان يحول بين الإنسان وبين مناقشة - مجرد مناقشة - قضية تتعلق ليس فقط بمجتمعه الحاضر وحياته ، بل به هو شخصيا وعائلته وأولاده ومستقبل بلادنا القادم كله ، كيف يمكن لقضية كهذه أن

توضع موضع التحريم بحيث يعتبر أى متصدا لها كافرا أو ملحدا أو زنديقا ، وكان بعض الناس قد أقاموا من أنفسهم أوصياء على المصريين يفكرون لهم ويشرعون ويفرضون الرأى بالقوة أو بالكثرة غير عابئين مطلقا بأن هناك مواطنين آخرين مخلصين مثلهم تماما ، ومؤمنين مثلهم تماما ، وهم نفس الحق فى قول الرأى أو مناقشة الرأى إذا قيل ، بل مناقشة حق هؤلاء الناس فى (فرض) الرأى ، واتهام من يعارضه بالخروج من جنة الدين وسماحة الإسلام .

وبالمناسبة أقول : إن هذا التطرف فى فرض الوصاية والتعصب على المسلمين يقابله فى الناحية الأخرى تعصب من بعض المتطرفين الأقباط وهذا وإن بدا طبيعيا ، إلا أنه فى النهاية لا يقل سوءا عن التطرف فى الناحية الإسلامية

* * *

أما الذى لفت نظرى حقا فهو أن معظم الخطابات التى شأبها التشنج والعصبية جاءت من بعض المصريين الذى يعملون فى دولة بترولية عربية وبعض مواطنى تلك الدولة . وهذا شئ فى نظرى لا غرابة فيه بالمرّة ، فإن الطريقة التى يطبق بها الإسلام وينادى بتطبيقه فى تلك الدولة طريقة متشنجة متعصبة لا تأخذ من الإسلام سوى قشرته الظاهرية من لباس أو قناع وتترك روحه ورسالته الإنسانية الحضارية الكبرى جانبا ، لأن الإسلام لو طبق تطبيقا حقيقيا سليم لتقوضت أنظمة كثيرة ترفع راية القشرة الإسلامية وتتجاهل جوهره العظيم . ومن أمثلة تلك الخطابات عدد منها يسألنى باستنكار كبير : كيف أجادل فى تطبيق شريعة الله وأنادى بتطبيق تلك القوانين الوضعية التى يضعها البشر .

وهذا هو لبّ الموضوع ، فإن أحدا لا ينادى أبدا بعدم تطبيق الشريعة الإلهية الإسلامية ، إنه يكون مجنوناً لو فعل ، فالشرائع السماوية كلها وعلى رأسها الإسلام فوق أنها أمر الله سبحانه وتعالى إلا أنها لم تأت إلا لتقيم العدل الاجتماعى بالمساواة الثامة بين البشر ، من هو المجنون الذى يعترض على شريعة الله ؟ معاذ الله . إنما المشكلة أيها الإخوان العاملون هناك أن الشريعة حقا وصدقا شريعة الله ، ولكن من يطبق تلك الشريعة ؟ ، مرة أخرى أتساءل : من سيطبق أو يطبق تلك الشريعة ؟ أليسوا هم البشر ؟ ، أليس هم أناس مثلى ومثلث حتى لو كانوا من فطاحل الفقهاء .. إذن الشريعة شريعة الله ، ولكن التطبيق يبقى دائما وأبدا من صنع البشر ومن أفعالهم ومن آرائهم وبهذا لا يكون للمطبق نفس قداسة الشريعة ، فالشريعة سماوية والمطبق بشر ، عرضة لأخطاء البشر وأهواء البشر .

ودعونا نأخذ مثلا طازجا وأخيرا .. الأستاذ الكبير خالد محمد خالد .. وهو من هو ممن لا ننتك لحظة فى صدق دعواه واجتهاداته ، يقول : إن تطبيق الشريعة لابد أن يحتوى على أن تكون الأمة مصدر السلطات ، وأن المسلمين يختارون ممثليهم وحاكميهم بالانتخاب الحر المباشر ، وأن الحقوق الديمقراطية الكاملة مشروعة وواجبة للمواطن المسلم وغير المسلم ، مثل حق إبداء الرأى وحرية العقيدة إلى آخر ما يعطى ما يسمى بالحقوق الديمقراطية للمواطنين كافة فى العالم المتحضر الآن . ويحيى شيخنا الكبير الأستاذ عمر التلمسانى ليعطى تفسيرا مختلفا تماما لتطبيق الشريعة ، باعتبار أن فكرة الديمقراطية نفسها فكرة غير إسلامية ، وارجعوا إلى مقاله فى جريدة الشعب المنشور حول هذا الموضوع لتجدوا أنه لا يتناقض فقط مع آراء الأستاذ خالد محمد خالد ، ولكنه يكاد

بعارضها تماما جملة وتفصيلا .. ثم نقرأ للأستاذ الدكتور عمر عبد الرحمن كتابا يقول شيئا ثالثا مختلفا تماما مع الأستاذين الجليلين ، وعماد هذا القول أن الأمة ليست مصدر السلطات ، ولكن الله سبحانه وتعالى هو مصدر السلطات بمعنى أن القرآن الكريم هو مصدر السلطات ، ولكن الدكتور عمر لم يجترأ عمّن سيفسر لنا ما ورد في القرآن الكريم من أحكام ، حتى لو كان هو المفسر ، أليس هو بشرا ، أليس هو مواطنا مصرياً ، أليس هو واحداً من شعب كبير له نفس الحق أن يختار من يحكمه وأن يلزم الحاكم بالشورى ومحاسبه ، أم أن الحاكم سيكتب - في رأى الدكتور عمر عبد الرحمن - سلطات إلهية بحيث لا يمكن محاسبته ، وهو الأمر الذى لم يزعمه أبدا خلفاء النبي - صلى الله عليه وسلم - الذين قالوا وهم أحباء النبي وأصدقائه وخلفاؤه والأعمدة التى قام عليها الإسلام نفسه ، إن رأيتم فينا اعوجاجا فقومونا ، إذن هم لم يأتوا باسم حق إلهي أن يحكموا المسلمين ، وإنما جاءوا نتيجة ترشيح من الأمة أو من أمير المؤمنين الأسبق ولم يصبحوا خلفاء وأمراء للمؤمنين إلا ببيعة (أو انتخاب حر مباشر) قام به كل مسلم في المدينة آنذاك .

* * *

من هذا الاختلاف ترون أيها الإخوة أن القضية ليست شريعة الله ، فهذا أمر لا خلاف عليه ، إنما القضية هي التفسير البشرى ، والتطبيق البشرى لتلك الشريعة السمحاء واختلاف البشر لأنهم بشر ولكونهم بشر في اجتihadاتهم لتطبيق تلك الشريعة ..

وهذا هو عين ما تساءلت عنه في مقالى الأول للأستاذ خالد محمد خالد :
شريعة من نطبقها ؟

لم يكن تساؤلا حول المبدأ الإلهى الذى لا نقاش فيه ، وإنما عن الاجتهادات والأهواء البشرية فى تطبيق تلك الشريعة ، فجعفر نميرى (طبق) الشريعة وأرغم السودانيين أو بعضهم على الأقل بأن يبايعوه (إماما) لمسلمى السودان مدى الحياة ، وفرح كثير من الدعاة المصريين أن نميرى قد هداه الله وطبق شريعته ولكن تقويض حكم نميرى لم يوقفه هذا التمسح والتسريع بالدين . ذلك أن الدين ليس تكأة للطغاة والحاكمين يتسترون وراءه ويعيثون بعد هذا فى الأرض فسادا الدين العقيدة هو أسمى ما يفعله الناس بحياتهم ، ولا يمكن أن يكون وسيلة طاغ أو ديكاتور .

فى سياحتى تلك داخل عقول كثير من القراء أدركت واكتشفت أن ثمة غسل مخ خطيرا قد حدث ويحدث للإنسان المصرى والعربى ، وأن هذا الغسل قد قام به بعض الدعاة الذين تربعوا على عرش وسائل الإعلام ، ورغم استنكارهم للحضارة الغربية ومساوئها فإن نفس وسائل تلك الحضارة وعلى رأسها التلفزيون هى التى اتخذوها وسيلة لغسل مخ المواطنين الطيبين البسطاء الذين يعبدون الله عن حب ، وليس عن رهبة ، وعن رغبة فى طاعته وليس خوفا من داعية أو تنظيم .

إن التلفزيون فى عصرنا الحاضر أصبح هو صانع عقل المواطن وتفكيره فالخطابات التى جاءتنى كان معظمها يردد كالبغاء ما ألقى فى عقله من مفهومات من خلال التلفزيون ، والغريب أن تلفزيوننا مثله مثل بقية التلفزيونات العربية

لا يتيح الفرصة للرأى الآخر ، أوحى للمناقشة أوحى الاستفسار ، انه يجعل الناس تجلس هكذا كالمسلوبة العقل والإرادة تستمع لما يلقى عليها ويحفظ لها (بتشديد الفاء) وكأنهم أطفال فى كتاب . وهكذا يتعود المواطن على أن يستقبل فقط ويردد فقط ويكف عن التفكير تماما انتظارا للداعية أن يفكر له وأن يعطيه الأوامر ، إنها مأساة حقيقية صنعتها وسائل الإعلام والنقود المنصبة على الألسنة والأقلام ، والهدف فى النهاية ، أقولها لكم وأهتف بها : تفويض مصر ، مصر الإيمان ومصر العقل ، مصر العلم ومصر الثقافة ، لئيبع لهذه الدولة أو تلك أن تحتل مكانتها فى قيادتها العالم العربى والإسلامى . ولكن.. عبثا ما يحاولون فالزبد سيذهب جفاء وما ينفع سيبقى .. إن شاء الله - فى الأرض ، أرض مصر العامرة ياتابعى وزارات الإعلام فى بعض الدول التى نهب رياحها الشرقية تحمل لنا التخلف والجمود ، وتريد أن ترجع بنا القهقرى عسانا نتأخر وتتقدم هى فلنتبته إلى مايراد بنا ، وللأسف على أيدي بعض المصريين. مرة أخرى أكتفى بالإشارة هنا ، فالمسألة قد زادت على حدها ، وتدخل تلك الدولة للعبث بالإنسان المسلم المصرى والعقل المصرى قد زاد على حده ، ولا بد معه من وقفة صريحة واضحة نضع فيها النقط فوق الحروف ، ونخرج النقود من الجيوب ونفحصها لنعرف فى أى بلد صكت .

إننا مسلمون آبا عن جد ، مسلمون بالبلاد ومسلمون بالاختيار ، ولا نرى العبث بإيماننا هذا ، ونرفض هذا العبث وندينه ، والمسألة فى حاجة إلى صرامة مطلقة تعالج بها هذا الخطر القادم من الشرق ..

ويا إذا عتينا ، وياتلفزيوننا ، ويا صحافتنا ، انتهوا حتى لا تكونوا شركاء ولو بالجهل بما يراد بنا ولنا .

أسرع يا بني .. وصوّر

بعيدا عن القضايا التي أصبح الحديث فيها «محلّك سر» بعيدا عن المناوشات الدائرة بين الحكومة والمعارضة ، وبين الأقاليم الصحفية والحكم بعيدا عن الحديث عن الديمقراطية وعن السلفية والخلافات الطاحنة حول قضايا ما أنزل الله بها من سلطان ، بعيدا عن (الحديث) عن الوفد الفلسطيني الأردني واحتمال قبول أمريكا ورفض إسرائيل ، وتحسن العلاقات وسوء العلاقات ، بعيدا عن الغلاء الذي يكوئ القلوب والجيوب ، والتسعية التي تظهر وتختفي كمفاريت الظهر ، والخرفان المذبوحة على عتبة وزارة (التعليم) ، والحمد لله أنها ليست على عتبة وزارة البحث العلمي والتكنولوجيا ، بعيدا عن أزمة المسرح وأزمة الإبداع وأزمة الأخلاق ، وقضية سميرة مليون .

بعيدا عن هذا كله ..

لا أعيش قرير العين رائق البال ، أناام نوم مستريح الضمير ، فالواقع أنى لا أناام إلا لئاما ..

ليس لأنى قلق البال ولا مؤرق الضمير والحمد لله .
ولكن لأن نقف أكتوبر تحت رأسى مباشرة .. ١

منذ ثلاثة أشهر والدق شغال . طوال الأربع والعشرين ساعة
وبمختلف أنواع الدرجات والنغمات ، فهناك دق متتال كطلقات المترليوز يقوم
به حفار الأسفلت الصغير ذو الضجيج العالى ، وهناك دق المدفعية الثقيلة
من غارسات الخوازيق الخرسانية ودق المطارق والمعاول ، وأكوام الرمل
والزلط ، وهى تنحدر فى شلالات ، ضجة تعشى العيون والآذان ، ناهيك عن
ضجيج الأوامر وصخب العمال والأنوار الملتبها الضوء التى تخرق الشيش
وتخرق الستائر وتفتح بالقوة أجفان العيون .

الحقيقة كانت الضجة فى أول قدومها مفاجأة أفلقت مضاجع بضع مئات
من سكان شارع النيل الذين شاء لهم الحظ أن يجاوروا ويطلوا على النفق
المزمع إقامته .

كانت من المفاجأة والصخب بحيث كنا لا ننام ليلا أو نهارا ، وكأننا فى
حرب ذات غارات متصلة ، ومادامت حربا فلتكن الهجرة ، وهاجرنا إلى
الإسكندرية ، وصحیح أن شارعنا هناك لم يكن به نفق ولا حرب فقد كان
دائم الضجة ، ضجة غير معلومة المصدر . ومن الصباح إلى الصباح
وكانها ضجة الجان الذى يقولون أنه يسكن أرض المعمورة .

ثم عدنا أخيرا متمنين أن تكون الأعمال الإنشائية الثقيلة فى النفق قد
انتهت ، ولكن لا شىء كان قد تغير ، اللهم إلا اختلاف النغمات ويزور بضع آلات
جديدة فى أوركسترا الضجة اللاهارموني .

وكنت منذ بدأ العمل قد أغلقت جميع النوافذ والمنافذ التى تطل على

موقع العمل دون فائدة فكل شيء كان يصل واضحا تماما وكأن الحفر في الشقة .

وأول ليلة بعد العودة حاولت النوم بلا أى اعتبار للضجة فقد أصبحت الضجة ملازمة لصحونا ومنامنا بطريقة لا أعرف ماذا يحدث لنا ولنومنا إن - فجأة - سكنت - الضجات كلها .

إلى الساعة الثالثة صباحا لم أستطع النوم ، ومادام لا فائدة من النوم فلنكن اليقظة ولنكن القراءة ، ولكن الضجة أوقفت عمل خلايا الاستيعاب هى الأخرى فأغلقت الكتاب ، وقت أنجول في الشقة شبه المظلمة التى تبدو متوهجة الضوء من فرط ما يصلها من ضجيج نهاري الطبيعة جحيميّ الوقع .

ثم كان ما ليس منه بد ، وفتحت نافذة مطلة على موقع العمل في النفق ، فوجدت بصرى يتوه والأمكنة والأصواء والآلات تتخاطفه وتتسابق لتكون أول ما يقع عليه البصر .

نهار كامل موجود في قلب الليل البهيم . رجال رائحون غادون يدون من العلو الذى كنت أنظر منه كائنات صغيرة دقيقة ككائنات (جوليفر) في جزيرة المغامرات التى سافر إليها . آلات هائلة الضخامة حتى أن احداها كان يبلغ ارتفاعها سبعة طوابق من عمارتنا ، وحين فتحت النافذة وجدت أمامى مباشرة أكاد أمد يدي فألمسها .

كان ذلك منذ حوالى أسبوع وكان النفق قد تم تبطين جانبيه بالخرسانة المسلحة ، وجارى العمل في حفر مجرى النفق وإزالة الأكوام الهائلة من التراب والعطين ، إذ كان تكميك العمل على ما بدا لي هو عمل سقف خرساني على

قواعد خرسانية مدكوكة ، ثم إزالة ماتحت السقف من أتربة وطين لايجاد مجرى
النفق بطول آلاف الأمتار كانت أكوام التراب الطيني من الضخامة بحيث
تكون جبالا وتلالا لا يستطيع العمال تسلقها ، وكان إذا أراد عامل أو ملاحظ
أو مهندس أن ينتقل من حيث الأرض التي تخضر إلى قمة التل يدلى له سائق
جهاز الحفر الكبير ذي اليد التي لها أصابع خمس تغترف بها التربة وتملأ عربة
ضخمة في عشر قبضات من قبضاتها العملاقة كان سائق الجهاز يدلى اليد إلى
العامل أو المهندس حيث هو في القاع ثم (يغرفه) ويصعد به أكثر من عشرة
أمتار ليصبح في القمة فينسل من القبضة وكأنه بطلقة فيلم (كينج كونج) حين
كانت تتسلل من بين أصابع يده وكأنها في حجم الدودة .

لم أفطن إلى أن النهار قد طلع إلا حين واجهتنى الشمس الحمراء وهي
تشرق ، وكأنها جهاز إضاءة أحمر جديد أضافه العاملون في النفق فجأة .

كنت قد أمضيت ثلاث ساعات لم تتسرب إلىّ فيها لحظة ملل واحدة ، وقد
امتصني ما يدور أمامي تماما ، ليس الجهد الهائل فقط ، ولا الآلات
العملاقة ، ولا هذا التفاهم الغريب القائم بين العامل والآلة ، ولا بين العمال
والملاحظ . ولا بين هؤلاء كلهم والمهندس أو المهندسين ، كل يعرف عمله
وكل يتحرك إليه وبه ، ولا كلام ولا فقهات ولا أجيب لك شيء
ولا توقف لشرب سيجارة أو نفس يورى ، عمل دموب تقوم به تلك
الكائنات الدقيقة على وقع هدير آلات لا تتوقف وكأنها موسيقى الجيش
النحاسية نلهب الحماس في ذلك الجيش الدقيق المحارب ، ويعدها لم أتم ،
وصرت إذا عدت من عملي أنام بضع ساعات بالنهار لأسهر معظم الليل

واقفا عند فتحة النافذة . لا أتفرج فقط ولا أنتشى . وإنما أنامل وأنفلسف
وتروح بى الأفكار ونجىء ، كم قال الآخرون وحقى أنا نفسى قلت إننا شعب
يميل إلى الكسل . وأنا بلا إرادة . وأن هدفنا أن نأكل ونحشى البطون
ونترغزغ بالمسرحيات والأفلام وتقرفش ، ما أراه هنا شعب آخر ، ذلك
الجانب الأكبر العظيم من الشعب المصرى الذى حين يحدد له الهدف يخلق
الوسيلة وحين يضع الهدف أمامه وتصبح الوسيلة فى يده ينطلق بأقصى
ما يستطيع الكائن البشرى أن ينطلق .

حسن جدا أن الرئيس حسنى مبارك أصر على تحديد يوم ٦ أكتوبر موعدا
لافتتاح النطق فقد ألهم هذا التحديد ظهور العاملين .

وجعل الشركة المنفذة وهى على ما أعتقد - لأنه من مكافى لا أستطيع أن
ألمح لافتة الشركة القائمة بالإنشاء والتنفيذ - شركة المقاولين العرب - جعل
الشركة وجعل عثمان أحمد عثمان يستعيد أمجاده التى حققها فى السد العالى
ولافتاته المشهورة ياق من الزمن مائة يوم وتسعة وتسعون يوما .. إلى آخره ،
ويتركه من كتابة الكتب وبالذات ذلك الكتاب اللقيط (أنا والعهد البائد)
ويعود إلى عمله الأصلى بنشئ المشروعات ويقبل التحدى وينجز .

لقد قرأت بحثا للدكتور عبد الكرم درويش رئيس أكاديمية الشرطة عن
مشكلة الإدارة فى مصر . وقد وضع الدكتور عبد الكرم يده على بيت الداء
فى الوجود المصرى . وهو أن تخلف الإدارة . بل وأحيانا إنعدامها وراء الكثير بل
كل مشاكلنا الاقتصادية . أعطنى إدارة جيدة أعطك إنتاجا وإنجازا هذا هو
السر وراء نجاح كثير من شركات المقاولات المصرية مثل شركات عثمان أحمد

عثمان والعبد وحسن علام ومتنصر

وحسن أن التأميم قد أشرك أصحاب هذه الشركات في إدارتها وإلا كانت قد
انتهت كشركات منجزة منتجة

* * *

بالامس ، وفي ظرف أيام لا تزيد عن الأربعة فتحت النافذة لأجد
ويا لدهشتي أن كومة من التراب الطيني الطائلة قد أزيلت تماما وسويت
الأرض بتدرج محسوب بالمليمتر، بل وسفلتت وبلطت بالأسمنت المسلح ، ثم
بدعوا ، ولست أدري ، لماذا يضعون أسياخا من الحديد فوق الأرضية
المسلحة ، في أربعة أيام فقط صار الشارع نفقا حقا ومسقوفا ..

ايقظت أبني بهاء خريج معهد السينما هذا العام وطلبت منه أن يبقى معي
في النافذة بعض الوقت ليتفرج .. وربما بإيقاظه من نومه بعد يوم هائل في
عمله لاتمام مشروع طرحه وقف متأففا بعض الوقت ثم أعجبته الآلة ذات
الأصابع الخمس العملاقة وما تفعله ، ثم اندمج في المشهد كله .

قلت له : لماذا لا تأخذ كاميرتك وتنزل إلى الشارع وتصور ما يدور وتصنع
(الكلوزات) للنمال الصعايدة الأبطال وترينا المهندسين في لحظة عمل ، وليس
كما تراهم في ادوار أنيقة في سينا لا علاقة لها بالواقع ، لماذا لا ترصد التقدم
المذهل الذي يحدث للعمل كل يوم وتسجله بالفيديو .

قال بعد تفكير ، صحيح فكره .. بس دي حتى ما تنفعش قيلم تسجيلي .

قلت له : يا ابني دعك من الأفلام والأنواع والأوهام إنه صحيح لن

يكون قليلا تسجيليا، ولكنه سيكون له عندى وعند الكثيرين أهمية لا تقدر
بمال .

قلت كلما انتابتنى فترة يأس من أحوالنا ، كلما بدأت ثقتى فى الإنسان
المصرى تهتز ، كلما أحسست بالروح تصل الحلقوم ، كلما هاجمنى الشعور بأن
لا فائدة وأن مصر حالة ميثوس منها ، كلما سخطت على نفسى والآخرين
كلما بدأ إيمانى بمصريتى يتزعزع كلما حدث لى شىء من هذا ، سأدير ذلك
الشريط وأعود أديره وأستعيد معه ثقتى بمصر القيمة ومصر الإنسان .

أسرع يا ابنى واحمل كاميرتك . وصور

فما أشد حاجتنا اليوم أن نرى أنفسنا فى لحظة عمل ، وحقيقة فتحنا لآتراها
الآن إلا فى لحظات كلام وكتابة وكلام ومؤتمرات وخطب ولجان . أسرع
يا بنى .. وصور ! .

إيزيس بين الحكيم ومطاول

إيزيس آخر مسرحية كتبها أستاذنا توفيق ، منبها بها عهده «الأوروبي»
فحين ذهب توفيق الحكيم إلى باريس ، وشاهد المسرح هناك ، بهرته فكرة
استعانة كتاب المسرح المحدثين بالأساطير الإغريقية القديمة حتى إن مأساة
أوديب كتبها ثلاثة أو أربعة كتاب محدثين ، فقال لنفسه : لماذا - ونحن أيضا
لدينا أساطيرنا - نستعين بها في خلق مسرح (عربي) وهكذا استعان بالله وكتب
مسرحية (أهل الكهف) ، والحق أن المسرحية في أول ظهورها أحدثت دويا
شديدا ، ليس فقط في الأوساط المسرحية ، ولكن وهذا هو المهم في
الأوساط الأدبية نفسها ، تلك التي كانت تعتبر المسرح نوعا من (المجلس)
و(التهريج) لا يدخل تحت باب الأدب ، حتى لو كان الممثل هو العملاق
جورج أبيض ، أو السيدة روزالبوسف وحتى لو كانت الرواية من أمهات
المسرح الأوروبي .

احتفلت الأوساط الأدبية بهذا الحدث الكبير حتى أن الشيخ مصطفى
عبد الرازق - لاحظوا الشيخ مصطفى عبد الرازق - تلقفها بترحاب هائل وأثنى
على مؤلفها ثناء عاطفا مع أن الرواية مأخوذة من النص القرآني الذي كان
لا يستطيع أحد أن يجرؤ على المساس بحرفيته ، وأهل الكهف ، في سورة

الكهف ، ليس فيها (بريسكا) ، ولا فيها امبراطور روماني ، ولا كل تلك الأشياء التي خلقها توفيق الحكيم تخليقا .

بعد سلايزيش نفص يده من فكرة الأساطير القديمة هذه ، ونتيجة لظهور (عودة الروح) ، ويوميات نائب في الأرياف ، بدأ الحكيم يفرغ شيئا فشيئا إلى قلب المجتمع المصري يستخلص منه مأساته أو ملهاته الحديثة وكانت مجموعة (مسرح المجتمع) خير تجسيد لهذا .

كانت الدنيا قد تطورت ، وكان جيل آخر من كتاب المسرح قد ظهر فتبنى بعضهم قضايا طبقية ، وبالذات قضايا الطبقة الوسطى وأزماتها ومشاكلها وملهاتها وجودها ونعاسته وكان صاحب هذا الاتجاه نعمان عاشور بروايتيه المغناطيس والناس إلى تحت .

ثم جذبني المسرح بقواه المغناطيسية الخارقة وكنت قد كتبت مسرحية من فصل واحد اسمها «ملك القطن» ، وأحلت قصة «جمهورية فرحات» إلى مسرحية ، ولم أكن إلى لحظتها أتصور أنها يمكن أن تمثل على خشبة المسرح فذهبت بهما إلى الصديق الأستاذ أحمد حمروش ، وكان آنذاك مشرقا على المسرح القومي ، ومشرقا على سلسلة كتب للجميع ، وطلبت منه أن ينشر المسرحيتين في كتاب للجميع ، فإذا به بعد يومين يتصل بي ويقول لي : نشره ده إلى انت جاي تقول عليه ، هذه مسرحيات لا بد أن تمثل

وهكذا أدرجت المسرحيتان في خطة المسرح ، وفعلا جسدتا ، أخرج الأولى الأستاذ الكبير نبيل الألفي ، والثانية المعلم الأستاذ المرحوم فتوح نشاطي ، وأشهد أن ليلة افتتاح العرض كانت من أعنف وأخصب التجارب

التي مررت بها في حياتي إلى درجة أن وقفنا أحمد حمروش وأنا نبكي في نهاية ملك القطن ، والمرحوم شفيق نور الدين يحبط (الأرض) التي تمثلها خشبة المسرح ويقول عن القطن .. اسبيه يتحرق ازاي يا ناس .. دا تعبى .. داشقاي .. دا عمرى وعرق وعيالى . كنا نرى هذا المشهد كل ليلة وكل ليلة بيكينا المشهد .

وقيل يومها إننى استطعت لأول مرة أن أجعل من الفلاح المصرى بطلا مسرحيا كما استطعت بعدها أن أجعل من فلاحه (الترحيلة) فى الحرام شخصية تراجيدية ترتفع إلى مرتبة التقديس .

المهم أننى بعد هاتين المسرحيتين .. ونظرا للنقد الذى وجه إليهما باعتبارهما مسرحيتين من فصل واحد وأنى قادر على كتابة مسرحية طويلة كتبت مسرحية (اللحظة الحرجة) من ثلاثة فصول ، وكانت المسرحية أيضا صدمة ، فقد خاف بطلها فى اللحظة التى كان يجب أن يؤدى فيها واجبه وأن يدافع عن أبيه الراكع يصل فى سلام ، بينما الجندى البريطانى يشهر عليه السلاح ، قيل لى أيامها كيف تجعل من الرعديد بطلا ، ولكن الدكتور لويس عوض كان له رأى آخر فقد كتب مقالا رائعا فى جريدة الشعب يقول عن المسرحية إنها دراسة فى الخوف ، خوف الغازى ممن يغزو أرضه وخوف الذى غزيت أرضه من الغازى .

ولكن بعد مسرحية اللحظة الحرجة توقفت لأننى أدركت أنى إنما أكتب على النسق الأوروبى ولا أفعل سوى تقليد راسين وموليير وأحيانا فيدو . وأصبح هدفى مثلا عثرت أو اكتشفت القصة المصرية العربية القصيرة

مضمونا وشكلا وطريقة أن أكتشف مسرحنا المصرى العربى المتميز داخل
حياتنا .

وكتبت سلسلة مقالات فى مجلة « الكتاب » عام ١٩٦٣ بعنوان نحو مسرح
مصرى عربى مبشرا بمسرح يستوحى الواقع المسرحى الحى الذى يعيشه شعبنا
من « ذكر » و « زار » وريابة شاعر ، وسامر ، وجلوس على المقاهى ، وحتى
الجنائزات والمعازى ، مظاهر لظواهر مسرحية ، من الواجب أن نستكشفها
ونحيلها إلى دراما عصرية حديثة تعبر عن ذاتنا المسرحية الخاصة ، وبهذا بدلا
من أن نعيش عالة على التراث المسرحى الأوروبى ، نشرت المسرح العلمى
بمسرحنا الخاص ، وعارضنى معظم النقاد فى هذا الاتجاه ، وقالوا لا يوجد
شكل مسرحى عربى أو مصرى ، وإنما الوجود شكل عالمى ضاع منه ما شئت من
مضمون مصرى يصبح مصرى ، ولما كنت أؤمن أن الشكل لا ينفصل عن
المضمون فى العمل الفنى . فقد كتبت « الفرافير » كنموذج لهذا النوع من
المسرح ، وكان بجاحها الجماهيرى بدل على أنى أسير فى الطريق الصحيح .

وهكذا حدث للمسرح المصرى زلزال آخر ، ومن الطريف هنا أن أذكر
أنى عرضت (الفرافير) على جميع مخرجى مصر فكانت إجاباتهم : هذا ليس
مسرحا ، الوحيد الذى أدرك ما فى داخلها من جواهر مسرحية شعبية ومصرية
وعربية كان هو كرم مطاوع وكان لا يزال قادما من بعثته فى إيطاليا ، وليس
المهم القدوم من البعثة ، المهم أن هذا الشاب مخرج موهوب قل أن ترزق
مصر بمثله .. إن باستطاعته أن يخرج الجريدة اليومية لو يشاء ، باستطاعته أن
يصنع ما يشاء .

ولكن فيه عيبا واحدا خطيرا. أنه يدرك هذا ، ويدرك أنه كمخرج يفهم في المسرح أكثر بكثير من الذين يكتبون للمسرح (في حين أن المؤلف هو الأصل وهو الذي لابد أن يفهم في الإخراج والتثيل أولا) .

المهم أننا بدأنا العمل في الفراير وبعد خروج العمل إلى الجمهور بدأت المشاحنات بيننا حول ما كان يجب أن يكون عليه إخراج الفراير ، وقد انتهت تلك المشاحنات إلى أن عرف كل منا قدر الآخر ، وبدأت المودة .

المضحك أن نصايبا مغربا ادعى بعد عشر سنوات من هذا أنه هو صاحب فكرة المسرح العربي وخالفه ، واسم هذا النصاب هو الطيب الصديقي ، ولا يزال ينصب على العالم العربي بهذا كله ، ولم يتصد له أحد ويذكره ، بأن ما يدعيه نصب ، بل نحن هنا في مصر نردد هذا كالبغاوات وكأننا لا نعرف التاريخ أو نسيناه .

* * *

نعود إلى إيزيس الحكيم وإيزيس مطاوع .

أقول إن إيزيس الحكيم كانت آخر مسرحية يكتبها متأثرا بما رآه من إحياء الأساطير في باريس ، إذ بعدها تحول إلى المسرح الاجتماعي ، ثم إلى ما أسماه شكلنا المسرحي أو بناءنا المسرحي (بعد ظهور الفراير والضجة التي قامت حول المسرح المصري) وكتب على هذا الأساس مسرحية (الصفقة) ثم جاءت موجة اللا معقول فكتب مسرحية (يا طالع الشجرة) ثم جاءت موجة مسرح المقاومة على يد الشرقاوي فكتب مسرحية عن المخابرات

المهم أن توفيق الحكيم رجل يؤثر (فهو الذى جعلنا نعتشق المسرح) وأيضا يتأثر بتلامذته ومحبيه ، ولكنه يخفى هذا كله فى جعبته ولا ينطق عنه حرفا ، أما الحكيم الرجل اذا كان بخيلا فالحكيم الكاتب أبخل من البخل وأنه وعمرى ما ضبطته يمتدح عملا حتى لمعاصريه إن لم يكن لتلاميذه ، هو يمتدحهم إذا كان الأمر بينه وبينهم ، أما كتابة وأما علنا فلا ، والآن جاء كرم مطاوع ليقدم إيزيس عام ٨٥

وليقدمها على مسرح جديد تماما ، المسرح القومى بعد تجديده .

ودعونا من الخناقات التى حدثت حول تقديم مجنون ليلي كافتتاح ، أو حول تقديم إيزيس ، فهذه خناقات أصبحت فى ذمة التاريخ .

دعونا ندخل المسرح القومى هذه الليلة لنشاهد افتتاح إيزيس ٨٥ فى حضور رئيس الجمهورية .

وأبدأ فأقول إنى - رغم أن الموعد يذكر السادسة والربع - كميعاد لبدء العرض ، إلا أننى ومنذ الساعة الخامسة ، وأنا أطوف بكل شارع يودى إلى ميدان العتبة حيث المسرح القومى ، ولدهشتى وجدت قوات المرور والأمن المركزى قد (احتلت) منطقة وسط البلد بأسرها ، وكأن ثمة مؤامرة من سكان القاهرة لمحاصرة الرئيس واحتجازه ، إننى لم أر هذا فى بلد من بلاد العالم أبدا ، أن تحتل قوات الجيش (الأمن المركزى) والبوليس كل شوارع وسط المدينة من الساعة الرابعة إلى التاسعة ، وكل هذا لأن موكب الرئيس سيمر أو أن ضيفا هاما سيمر ، إن هذا منتهى عدم الثقة فى المواطنين ومنتهى إظهار العضلات للأمن المركزى والشرطة . فالرئيس فى العادة يقابل

بالترحاب حتى من الجماهير المتجمعة في الشوارع تهتف باسمه ، فما بالهم وهم يعاملون الجمهور ، وكأنه سيتلقى موكب الرئيس بالحجارة أو بالرصاص - نحن شعب أكثر رقيا من كل الأجهزة القائمة على حراسة الرئاسة وغير الرئاسة وفي الحقيقة نحن الذين نحرس الرئيس ، أو بعض الرؤساء ، وليس حراسه الخصوصيين أو العموميين ، ولقد صرع المرحوم الرئيس السادات وهو في قلب حراسته الخاصة محاطا بكم هائل من القوات المسلحة والطائرات المحلقة لي رجاء إلى السيد وزير الداخلية أن يغير من هذا النظام الذي يربك حياة الناس ويعطل مصالحهم ويزيد السخط في نفوسهم ، فالرئيس المحبوب تحرسه قلوب الشعب ، وما تفعل قوات الأمن والشرطة إلا أن تحول بين هذا الحب وبين أن يصل إلى قلب الرئيس .

وصلت إلى مسرح الأزيكية وفحصتني كل الأجهزة الالكترونية التي طلعتني براءة والحمد لله . وكنت قد نسيت تذكرة الدخول . وحمدا لله أن ضباط رئاسة الجمهورية بدا وجهي مألوفا لديهم وإلا لما كنت حضرت العرض الذي أنا مدعو إليه .

دخلت المسرح . ساحة المسرح الخارجية أصبحت في منتهى الجمال والتنسيق ، دلفت إلى الصالة فصدمني المشهد ، زخارف كثيرة مذهبة وكأننا في مسرح مدينة بترولية ، خشبة المسرح وضعها سقيم ، المسافة بين الخشبة والمقاعد بعيدة أكثر من اللازم ، ومنظأة بطبقات كثيفة من سجاجيد المأتم وحتى ليست موضوعة بترتيب وتنسيق ، وإنما هي موضوعة (كلشنيكان) بحيث تحتل حافة الواحدة الحافة الأخرى في مشهد لا يبعث أبدا على الاحترام .

المسرح نقص مالا يقل عن المائة كرسى وأصبح في حجم مسرح الجيب

خرجت إلى الصالة ثم إلى الخارج لأشاهد هذا الذى أنفقوا عليه ملايين الجنيهات ، فإذا بى أجد زخرفة إسلامية ، لا علاقة لها بالزخرفة الإسلامية الحقيقية التى كنا نصنعها منذ أيام أحمد بن طولون ، مساحات رهيبة فارغة تملأ الجدران الخارجية ، وليس بداخلها ما ينم على أن هذا مسرح أو مسجد أو معبد يهودى ، أين صرفت تلك النقود كلها وما رأيت لا يمكن أن يتكف أكثر من مليون جنيه - أريد من السيد رئيس الوزراء والسيد وزير الثقافة أن يشكلا لجنة من كبار أساتذة الهندسة المضمونى الذمة بقدرون حجم الإصلاحات ، وكمّ النقود المنصرف ويحاسب المختلسون غداً واثق أن هذه العملية قد اختلس منها ما لا يقل عن الثلاثة ملايين جنيه .

* * *

ثم بدأ العرض المسرحى ، وفى ذهنى سؤال : ترى ماذا سيفعل كرم مطاوع بإيزيس الحكيم ، إيزيس الحكيم كانت أسطورة (محترمة) لقصة إيزيس وأوزوريس وحورس وتيفون ، واغتصاب الملك من أوزوريس وقتله ثم إصرار حورس ، أسطورة بسيطة بساطة الأفاصيل الفرعونية القديمة مثل الفلاح الفصيح وكتاب الموتى ومسرحيات الكهنة .

طبعا من المستحيل أن يخرج كرم مطاوع إيزيس الحكيم بنفس بساطتها إذن أين دوره هو كمخرج ؟ وهكذا أخرج كرم مطاوع النص عن بساطته أولا ، وعن الحكيم ثانيا ، وبهذا فهى فى الحقيقة إيزيس مطاوع ، وحتى

لو كان عدل فيها - كما يقول الرواة - توفيق الحكيم فهو قد فعل هذا بتتويم
مغناطيسى إخراجى من كرم مطاوع .

وهكذا من الأسطورة البسيطة خلق كرم «أوبريت» ملأها بالرقص والغناء
المصرى والشامى والزار ومجاميع لا حصر لها ، كان على المسرح أحيانا ما يزيد
على السبعين ممثلا وممثلة ، وإذا عرفت أن المسرح لم (يكنس) منذ إنشائه
وكنت تجلس مثلى فى الصف الأول ، لأدركت مدى ما دخل صدرى من
غبار وتراب سببه دبذبة هذه العشرات من الراقصين والراقصات فوق الخشبة
الملبثة بالتراب وتساعد هذا التراب على هيئة سحب خائفة تملأ الصالة
الصغيرة إلى حد الحلقوم ، أما كان هناك عاقل واحد يفكر قبل العرض فى
كنس الخشبة ورشها لتصبح مكانا جديرا بالعرض لتلك العشرات من
المجاميع .

باختصار شديد ذهبت أتفرج على توفيق الحكيم فاستولى على عقلى كرم
مطاوع بكثرة المجاميع والأغاني والراقصات ، وكأنه أدخل إلى خشبة المسرح
فرقة من الأمن المركزى لتحافظ هى الأخرى على حياة الرئيس وكبار
المدعوين .

أجل - أحالها كرم مطاوع إلى أوبرا ، ولو كان كرم مطاوع فى ظروف
نفسية أصلىح ، ولو كان لم يشغل وقته ، رغما عنه فى خناقات ما أنزل الله بها
من سلطان حول المسرح الذى تعرض فيه مسرحيته ، ولو أضاف قليلا بل
لا بد أن أقول كثيراً عن الشاعرية ، لا للديكور أو للرقصات ، وإنما للمواقف
الإنسانية العميقة التى تحفل بها الأسطورة ، مثل مشهد لقاء إيزيس بابنها

حورس بعد غيبة خمسة عشر عاما ، ولوجعل حورس يتحدث عن أبيه
المقتول حديث ابن قتل أبوه ولم يره ، ولم ير استيلاء تيفون على الحكم
ولونوقف قليلا عند مشكلة الحكم ، ومن يحكم من ، وهل الحكم للقوة
أوللعدل ... و... و... كثير من المشاهد التي كانت في حاجة إلى كتابة
درامية حديثة ، ومراجعة متأنية لكل جملة من جمل الحوار ..

لوكان قد فعل هذا لكانت إيزيس أروع عمل إخراجي تم على المسرح
المصرى ، ولكن هكذا شاءت العجلة ، وإصلاح المسرح ، والختناقات
والظروف النفسية القضارية أطنابها في هيئة المسرح بشكل عام وفي وزارة
الثقافة بشكل خاص .

ورغم هذا فإيزيس عرض مسرحي رغم كل شيء - استمتعت به أنا
وغيري غاية المتعة ، استمتع المستيقظ لثوه بعد غفوة إغماء طويلة ، لقد عاد
المسرح ، لقد عاد ، ها هو يتأهب ويتمطى ولكن الحياة دبّت فيه ديب
أرجل الكومبارس والراقصين ، عادت الروح ترفرف في سقف مسرح
الأزبكية العتيق ، عدنا نذهب إلى المسرح .

أما أن يحضر الرئيس مبارك هذا الافتتاح ، فتلك لفظة لا أظنها تخفى على
أحد ، لقد أراد بها غيما أظن أن يطيب خاطر الفنانين الذين انتهالت عليهم
الصحافة بالهبروين والكوكابين والانحلال ، وأراد أن يقول أنا مع الفن الجاد
(أى مع القطاع العام) وأنا مع العمل الجاد حتى لو تكلف « ٣٥٠ ألف جنيه » .

وهذا في حد ذاته انتصار كبير للعائلة الثقافية المسرحية ، شكرا يا رئيس
وشكرا أنك اصططحت السيدة حرمك ، فلي أكثر من خمسين عاما أعيش

على الأرض المصرية وأحضر مسرحيات واحتفالات لم أشهد خلالها رئيس جمهورية جادا يحترم حضور المرأة ويصطحب زوجته لتحضر معه ، وفي نفس اللوج ، عرضا مسرحيا ، إن هذا ما يسمونه التحضر الحقيقي أما التحجل حقا فهو أن عدد المدعوين كان قليلا جدا ، مع أن حدثا كهذا يعتبر في البلاد المتحضرة عيدا اجتماعيا وفنيا خطيرا تستعد له المهتمات بالفن - وما أكثرهن في مصر - استعدادهن لحفل زفاف عزيز

* * *

ولا أستطيع أن أنهى كلمتي قبل أن أقبل صلاح جاهين على أغنيته التي أرشحها معها لأن يبدأ كتابة أوبريتات من تأليفه .

كذلك لا أستطيع أن أنهى كلمتي قبل أن أشيد بسهير المرشدى إشادة خاصة ، فقد نصجت الممثلة الشابة نضوجا جعلها تشرح قلبي بإحساسها بعد أن كانت تشرحه بصوتها العالى ، الآن هى تؤدى من الداخل ، والداخل يصل مباشرة إلى الداخل . ويعتصره . هنيئا لك بدور العمر هذا ياسهير وأرجو أن يكون بداية ، مجرد بداية ، لمرحلة نجعلنا نغلى بالغضب وبالرضا بالسخط والإشفاق ، بالدموع والضحكات ، وأنت تهسين ، فقط تهسين .

ميروك يا أستاذة سميحة أيوب لافتتاح مسرحك .

ميروك يا كرم مطاوع بإيزيسك الصاخبة .

ميروك ياسهير المرشدى على سهيرك الجديدة .

لكى نعيش الحاضر لابد أن نعرف المستقبل

منذ عام أو أكثر كتبت سلسلة مقالات أحاول أن أشخص فيها سر (عدم
خلو البال المصرى) وكان الاستنتاج الأكبر الذى وصلت إليه أن كثيرا من
الارتباكات السائدة فى حياتنا ، على المستوى العام وعلى المستوى الفردى ، على
مستوى الحكومة ، وعلى مستوى المعارضة ، يمكن فى تخوفنا أو بالأصح عدم
تأكدنا من المستقبل ، وقلت فى تلك المقالات إن الإنسان كما أنه كائن له تاريخ
وواع بتاريخه هذا ، فإن إحدى خصائصه المهمة الخطيرة أنه كائن يعى أيضا أن له
مستقبلا ، بل إنه ليعيش الحاضر ، ويعود يستوحى التاريخ ويذاكره خدمة
للمستقبل ، لتحديد ذلك المستقبل ونوعه ودوره فيه ، بل حتى أنه لا يعيش
الحاضر ، لكل ما قد يبدو أنه مجرد وجود فى الحاضر ، إلا من أجل التمكين
لمستقبله .

بمعنى أنه لا يمكن لأمة أن ترتب حياتها على أساس وجودها اليوم فقط وإنما
كلها فى الغالب تعمل لدنياها وكأنها ستعيش أبدا ، بينما هى تعمل وكأنها
ستموت غدا ، لآخرتها فقط وليس لدنياها .

ولقد أسعدنى أننى لم أكن وحدى الذى فكرت وأفكر فى هذا كله ، ففى
حديث الأستاذ محمد حسين هيكل لجريدة أخبار اليوم ذكر ما أسماه المشروع

القومى العام ، بمعنى أننا صحيح لدينا تعدد أحزاب وحرابات ديمقراطية لا بأس بها ، ولكن الأمم لا تقوم بهذا ، وإنما تقوم الأمم ، حكومة ومعارضة وأحزابا ومستقلين وجماهير عادية بهدف قومى عام تسعى لتحقيقه وبشكل بالنسبة لتفكيرها على المستوى الفردى والجماعى ما أسميته « بالمستقبل » والسعى لتصور وتأكيد العمل من أجل هذا المستقبل ، إذا اتفقنا جميعا على تصور واحد - وإن يكن مختلفا فى جزئياته وتكتيكاته وطرق الوصول إليه ، إذا اتفقنا على ما يمكن أن نصنعه بمستقبلنا (العام) وتبينت لنا خطوطه ولو العريضة جدا لأمكن لكل منا كفرد ، ولكل حزب كحزب ، ولكل جهاز كدولة ، أن يطمئن إلى أنه يسير فى طريق معروف سلفا إلى أين يودى ، ونهايته أيضا تكاد تكون معروفة .

وربما من أجل افتقارنا إلى هذا التصور العام لمستقبلنا ، يرتبك حاضرتنا ويشد بنا الارتباك ، ولا نستطيع أن نفرق بين ما هو تكييكي وما هو استراتيجى ، بين ما هو ملء ، وما يمكن تأجيله ، سؤالا مشروعا تماما ، فنحن مثلا كلنا نعرف أن علينا ديونا ، متى نسدها ، وكيف ، وهل يأتى اليوم الذى نتوقف فيه عن الاقتراض وعن الاعتماد على المعونات أو أنه لن يأتى أبدا .

مشكلة الديون هذه جزئية واحدة من جزئيات رؤيتنا الشاملة إلى المستقبل أو بالتعبير الهيكلى المشروع القومى العام .

ذلك لأنه توجد جزئيات أخرى كثيرة جدا ، فجانب المشاريع الكبرى والطرق والكبارى والخدمات - وهى كلها موجهة لخدمة المصريين الذين يقيمون اليوم أو على الأكثر فى الغد القريب ، ولكن مصر كدولة ستحتاج ربما للآلاف من

السنين المقبلة ، فلتتواضع ولنقل على الأقل للمائة عام المقبلة ، فهل ما نقوم به من خدمات الآن ، وهى جليئة ما فى ذلك شك ، كاف لكى نرى من خلاله مستقبل مصر ، أى مستقبل أولادنا وأحفادنا وكيف يكون .

إننى هنا أؤكد أن كل مشاريع الخدمات فى مصر - مهما بلغت ضخامتها - لا يمكن أن تطمئن المواطن أو الحزب أو الجهاز على مستقبلنا ، فهى مشاريع للخدمة الحاضر ، ونحن لا يمكن أن نبني الحاضر على أسس سليمة إلا إذا كنا نرى المستقبل يوضح تام ، أو على الأقل بشبه وضوح .

ونفعل هذا رغم أن كل الأحداث ، خاصة الأخيرة منها ، تهب بنا أن قد آن الأوان ليجتمع شمل المصريين حول رؤيا للمستقبل وكيف يكون ، إذ بدون هذا سوف نظل نتخبط ، ونحيا يوما بيوم ، و(طقة) (بطقة) وتظل أفعالنا ليست مبنية على خطة كبرى ننفذها على خطوات ، وإنما مجرد ردود أفعال إما أن نحاول اتهام الآخرين بأنهم وراءها وإما أن نحاول تجاهلها ، وإما أن نتشاغل فى مشكلة فرعية تصبح وكأنها مشكلة الساعة ، ونفعل هذا حكومة ومعارضة .
ولأضرب مثلا ...

فى الأسبوعين الماضيين ناقش مجلس الشعب استجوابا قدمه الأستاذ بس سراج الدين عن (هبوط) مستوى برامج التلفزيون ، وعن حكاية القناة الثالثة ، وعن غياب المعارضة عن الشاشة الصغيرة وميكرفون الإذاعة .

ولسوء الحظ قدم الاستجواب والمعرفة مستمرة بين المعارضة والشارع المصرى من جهة وبين مصداقية بعض الأجهزة الحكومية والإعلامية من جهة أخرى ، وكان حريّا بدلا من أن نظل لمدة يومين كاملين ، نستمع إلى آراء ما أنزل

الله بها من سلطان حول القناة الثالثة وماهية المواد التي تقدم فيها ، وحول وصول
نجوم المعارضة إلى الشاشة الصغيرة أو حتى الكبيرة كان حرياً أن يتحول مجلس
الشعب إلى قاعة لا حزب أغلبية فيها ولا معارضة ، وإنما إلى مؤتمر وطني كبير
يناقش فيه فلسفة إعلامنا بالدرجة الأولى .

فوزارة الإعلام منذ أن تولاها المرحوم صلاح سالم في أول الثورة إلى أن
تولاها الوزير صفوت الشريف ومرّ عليها الدكتور عبد القادر حاتم والمرحوم
جمال العطيني والأستاذ فائق والأستاذ محمد حسن الزيات ، جميعاً وإلى الآن
ينفذون فلسفة إعلامية واحدة ، تلك التي تمنع أو تمنع الأخبار حسب ما تراه
الدولة ومصلحتها ، وحسب ما يشتتون من اتجاهات رئيس الدولة ، ابتداء من
الرئيس جمال عبد الناصر إلى الرئيس حسني مبارك .

حدثت تغيرات كثيرة في الأربعة والثلاثين عاماً الماضية ، ولكن بقيت
فلسفة الإعلام المصري كما هي لم تتغير ، لالعب في هذا الوزير أو ذاك
ولا لأن هذا أكثر تبجراً في العلوم الإعلامية من ذاك ، وإنما لأن التوجيه واحد
والتوجه واحد .

وكان حرباً بنا ، وبالذات منذ أن تولى الرئيس مبارك الحكم ، وأصبح
تعدد الأحزاب واقعاً ملموساً وأصبحت صحف المعارضة تنشر كل ما يعن لها
وما لا تستطيع حتى أن تغذيه المحطات الأجنبية ، كان حرياً بنا أن نبدأ نفكر في
فلسفة جديدة للإعلام القومي «أو الحكومي إن شئت» ، فلسفة جديدة لأن
الخبر الذي لا تنشره (الصحف القومية) تنشره صحف المعارضة بأعرض بنط
ويحتل مساحة من اهتمام الرأي العام أكثر بكثير مما لو كانت الصحف القومية قد

نشرته بكل الحقيقة والموضوعية ، ذلك لأن الرأي العام يتصور أن مجرد عدم نشره في الجريدة القومية معناه أن وراء هذا (التعتيم) الإعلامى ما وراءه ، وأن الحقيقة أدهى وأمر ، فى حين أن من الممكن ألا يكون هذا هو الوضع .

ولكنها (الفلسفة) التى تعتبر أن نشر أى خبر فيه مساس بأى جهاز من أجهزة الدولة خطيئة كبرى ، تلك الفلسفة التى تؤدى بالدولة نفسها إلى أن تتركب رأسها ولا تستجيب لضغط الجماهير و(تغير) ، أو توقف الموظف المتهم أو تأمر بتكوين لجنة لتقصى الحقائق فى قضايا أصبحت محل شك عام ، وكأنها تتصرف باستمرار على أنها حكومة متهمة وعلى أن الاتهام حقيقى ، ومن واجبها أن تستر عليه ، فى حين أن حكومة كالحكومة المصرية متزامة الأطراف فيها الفاسد وفيها الشريف النظيف ، فيها المرتشى وفيها الذى يترفع عن أى هوى ، ومن المحال أن يكون كل موظفيها أو كل أجهزتها يقوم عليها ملائكة لا يخطئون ولا يقتربون أى لثم .

كان مفروضاً أن تتحول قاعة مجلس الشعب ، لا إلى مبارزة (راديفير) بين المعارضة والحكومة ، ولكن إلى مؤتمر قومى عام ، يناقش بهدوء شديد وبكلمات معدة ، وبمعلومات (فلسفة) الإعلام الذى تسيطر عليه الدولة سواء أكان إذاعة أم صحافة أو تليفزيوناً تجاه أوضاعنا الجديدة فى ظل التعدد الحزبى والإعلامى ، فالخطأ ليس خطأ الشريف أورثية التليفزيون أو رئيس الإذاعة ، الخطأ خطأ الفلسفة التى قام بها وعليها الجهاز ، والذى تغيرت العصور وتراكمت الطبقات الجيولوجية بعضها فوق بعض من حكم اشتراكى شامل إلى منابر ، إلى حزبية وتعدد ، من مصر كلها قطاع عام ، إلى مصر وقد أصبح

قطاعها الخاص هو الغالب . من مصر لا تستورد ، وإنما تنتج من الإبرة إلى الصاروخ إلى مصر تستورد الإبر والمسامير وتستعير من أمريكا الصواريخ ، أم يمكن أن يحدث هذا كله ويظل الإعلام هو الإعلام ، وتظل فلسفته هي نفس الفلسفة ؟ ! .

مستحيل .

ولا يزال الأمر أيضا مستحيلا .

فلابد من تغيير فلسفة إعلامنا لتتلاءم مع أوضاعنا الجديدة ويصبح الوزير أو المسئول الذى يخرج على تلك الفلسفة هو المخطئ وهو الواجب محاسبته ، أما الآن فالحساب لابد أن يكون للفلسفة التى يحكم على أساسها الوزير والتقاليد التى جرت عليها أجهزة الإعلام منذ قيام الوزارة الأولى إلى الآن .

هذه الفلسفة الإعلامية الجديدة لا يمكن أن تشكل هى الأخرى وتنبلور إلا فى ظل رؤيا واضحة للمستقبل أو هدف عظيم نحلم به للمستقبل أو للمشروع القومى العام ، إذ أن تحديد ذلك الهدف ، وتحديد إلى أين نحن سائرون سيحدد لنا بالضرورة والتأكيد كيف نسير الآن وكيف نحضى ، ليس فقط فى أجهزة إعلامنا ، ولكن فى قطاعنا العام ، فى تسليحتنا ، فى ديوننا وكيف نسدها أو كيف نشترك مع الآخرين المديونين ونكون - على غرار دول عدم الانحياز - ما أسمىته فى مفكرة سابقة منظمة الدول المديونية أو اختصارا (م . د . م) ...

أخذنا مثلا من الإعلام ، والآن نأخذ مثلا آخر ، وبإله من مثال عجيب فبعيدا عن الأمثلة الحساسة الأخرى التى تساقطت فوق رؤوسنا طوال الأشهر

الثلاثة الماضية ، لناخذ مثلا قريبا جدا ، حكاية الصيدالة والصيدليات ... كانت مصلحة الضرائب تحاسب الصيدالة بنصم ٢٪ من ثمن الدواء من المنبع والمنبع كان كله - إلا فيما ندر - شركات قطاع عام تنتج الأدوية وشركات استثمار مشتركة ، وكانت جميع تلك الشركات تورد ما تحصل عليه من ضرائب إلى وزارة الخزانة .

ظل هذا يحدث منذ سنة ١٩٧١ إلى هذا العام . حين قرر فجأة الدكتور صلاح حامد إلغاء هذا النظام ، واتباع نظام مأموري الضرائب الذين يذهبون لكل صيدلية ويفتشون على مبيعاتها ويقدرّون - جزافا بالطبع - فليس معقولا أن يربط في كل أجزخانة مأمور ضرائب ليل نهار لحصر ما تبعة الصيدلية من أدوية ، وما ينتج عن هذا البيع من أرباح . يعنى أولا هو نظام غير قابل للتنفيذ العمل إلا لو عيّنا ألف مأمور ضرائب خصيصا للأجزخانات ، وثانيا ليس من المعقول أن يظل نظام ساريا لمدة خمسة عشر عاما ثم يعنّ لوزير المالية أن يصدر قرارا يغيّر به النظام فجأة فيربك الدنيا كلها ، وأول من يربك هم الصيدالة ، وإذا بالصيدالة المرتبكين بهذه الكارثة التي تهددهم بالتقدير الجزافي ، يجمعون ويقررون العمل ثنائي ساعا فقط في اليوم وإغلاق الصيدليات من الساعة السادسة مساء .. بينا عيادات الأطباء تبدأ عملها في السادسة مساء ، وكل مريض يخرج من عند الطبيب بروشته يريد صرفها فإذا بالأجزخانات كلها مغلقة ، والمفتوح فقط هو الأجزخانات الليلية ، وهي الأخرى فارغة تقريبا من كل الأدوية الهامة التي يحتاجها المريض خاصة في الحالات الجادة

وفي مدينة كالقاهرة مقدارها عشرة ملايين نسمة لا تفتح فيها ليلا إلا أقل

من سبع أجزاء متباعدة تباعد الزهرة عن المشتري .

أبعد هذا ارتباطك في التخطيط والتنفيذ ؟

ألا يدل هذا على أن الوزراء مشغولو البال بطريقة لا تتيح لهم التفكير العلمى لحل المشاكل .

أنا أفهم أن يعتقد وزير المالية أن التقديرات الحالية للضرائب على الأدوية غير كافية ، وأنه لابد من رفعها . وهذا حقه ، ولكن الذى ليس من حقه أبدا هو أن يصدر قرارا من جانبه وحده بهذا النظام ، كان لابد من دراسة الموضوع من جميع نواحيه والاتفاق مع نقابة الصيادلة وإيجاد حل عادل للمشكلة .

أما هذه القرارات غير المدروسة فقد أدت إلى مأساة لم يكن ضحيتها الوزير ولا الصيدلى ولكن كان ضحيتها آلاف المرضى المساكين الذين يجوبون القاهرة من أقصاها إلى أقصاها بحثا عن دواء ربو ناقص أو دواء مسكن لمفص مروع وأغلبهم من الفقراء الذين لا يملكون ما يستطيعون أن يدخلوا به مستشفى من مستشفيات الانفتاح وقضاء ليلة تكلفهم فوق المائة جنيه من أجل الحصول على الدواء ، أما مسألة صيدليات المستشفيات العامة الحكومية فقلبى مع الصديق الكبير الدكتور حلمى الحليدى الذى وجد نفسه - هو المشول عن صح الشعب ودوائه - بين مطرقة الدكتور صلاح حامد وسندان إخواننا الصيادلة الذين فأجأتهم مطرقته ، ولم يكن أمامهم من خيار إلا بأن يستغيثوا بالرأى العام ويألها من استغاثة حचितها هم المرضى المساكين .

موضوع الضرائب هذا سواء على الصيادلة أو الأطباء ، أو المحامين أو غيرهم

ذلك الموضوع الذى يصرخ منه الجميع ماعدا تجار المخدرات الذين يريحون الملايين .

مواضيع خطيرة جدا كهذه تتعلق بصحة المواطنين ، ومدى الترابط القومى بين فئات الشعب ومدى رضا الشعب عن حكومته ، حكومة تتخذ فيها القرارات هكذا عشوائية ، كالقرارات الاقتصادية ، مع أنها كلها لابد أن تدخل فى صميم رؤيا الحاضر على ضوء المستقبل ، ورؤيا المستقبل على ضوء الحاضر ، والتجهيز للحاضر والمستقبل بدواسات سريعة عاجلة تأخذ فى الاعتبار كافة الأطراف وتبين كافة المخاطر .

وإذا كانت القرارات الاقتصادية العشوائية قد أضرت ببعض تجار العملة وبعض ملاك الدولار .

فالقرارات الضريبية العشوائية تضر ملايين المواطنين الفقراء الذين يثثون حتى مطلع الصباح .

أنى أرجو من السيد وزير الصحة أن يسارع قورا إلى التوسط بين نقابة الصيادلة ووزير المالية لإنهاء هذا الوضع الذى تجار منه الجماهير . لقد رأيت بعينى أكثر من مائة وخمسين مريضا أمام صيدلية الاسعاف وحدها وبعضهم فى حالة من الإعياء لا يمكن أن يتحمل الإنسان أن يرى حيوانا يعانى منها .

أرجو أن يفصل هذا ويفض المشكلة ، فالموضوع أخطر بكثير مما يتصور الجالسون على كراسى الوزراء ، والشعب قد بلغ به التعب الزبى فلا تتركوا له حتى حق الدواء ؟ !

غير أن الحديث عن المستقبل لم ينته بعد - فهو موضوع حياتنا اليوم وغدا ،
حياتنا أو موتنا .

حتما سأكتب قصتها

أريد أن أكتب قصة .. قصتها .. حديثة جدا وقريبة جدا فقد وقعت أحداثها خلال أيام قليلة مضت ، عرفناها وشاهدناها وأثقلت قلوبنا جميعا بهم من الصعب أن يزول ..

قصة حديثة لأنى كففت عن قراءة القصص التى تبدأ بكانت الريح تزوم ، والقمر محاقا ، والدنيا بين صيف وشتاء .. كففت عن قراءة قصص تحدثنى عن إنسان يشكو الظلم أو الوحدة أو انعدام الهدف ..

كففت عن قراءة قصص الخيال الطفولية ، وكأنما تكتب من أطفال ليقرأها أطفال .. كففت لأن مايدور بنا وأماننا ونعيشه أصبح أكثر فاعلية بكثير من أى خيال ، ومن أى رعب مصطنع ، ومن أية كوارث قرأنا عنها فى التاريخ .. ماذا يكون شعر الخنساء ، أو تكون تراجيديا (أوديب) أو (هاملت) الذى يتأرجح بين أن يكون أو لا يكون ؟ كل ماكتبته البشرية بخيالها وتجاربها لا يقارن بما يحدث أمامنا فى واقعنا الآن ، بل وعلى الساحة من حولنا وفى العالم ..

فهى قصة أبطالها رؤساء دول ، وفتيان عرب ، وقنابل وطائرات مخطوفة ،

وسفن مأسورة ، وبنات شجعان ، ورجال حبسوا فاتهم ، محتوقين بجهنم
قصص بطولات ، وعبث أخرج مجنون ، ورجال تعصف الأوضاع بأفئدتهم
وعقوهم ، ورؤساء عرب عناتيل محتمين في جحورهم المحروسة بالدبابات
والمحاطون بالمرتزة ، وهم بكل إجرام وجبن يصدرون الأوامر بالاغتيال
والاقتتال . قصة دولة عنصرية قامت على المذابح وبالمذابح ، وتعيش
بالترويع ، ودولة كبرى في مساحتها وثروتها ، صغرى إلى أدنى حدود الصغار في
سلوكها وقيمها ، قصة عالم عربي جاءت أعظم رسالات من السماء فأصبح بها
ذات يوم أعظم الشعوب ، ثم تفجر له من باطن الأرض شيطان أسود يحاول أن
ينهش رسالته العظيمة ويلتهم إنسانيته ولا يبقى له سوى نفس مريضة أمارة بالسوء
والجشع واجتثاث الضمير .

أريد أن أكتب قصة .. قصتها ..

ولكنها ليست قصة مجردة حدثت من فراغ وفي فراغ .

إنها قصة حدثت ودارت في قلب وخلفية الجحيم الذي نحياه ..

وأبطالها كلهم وكأنما يساقون إلى مصيرهم وحتفهم بقدر لا يستطيعون منعه أو
دفعه أو حتى تحويل مساره .

* * *

ثلاثة فتية عرب ..

أحدهم ولد - حيث يقول - في قرية يحنسى فيها أبوه زيت الزيتون كل
صباح ليكتسب الصحة والقدرة وطول العمر والبقاء ، ومات هو ، الفتي

مجنّدا في طائرة مصرية ، كان ينوى أن يقتل - وقتل - كل ركبائها الذين لا ذنب لهم ولا حول إلا أنهم ركاب طائرة مصرية .

وزميلاه اللذان قابلاه في أثينا ، لأول مرة يلتقي الثلاثة ، عربا كنا ونبقى عربا ، لا يعرف بعضهم البعض ، بل حتى لا يعرفون مهمتهم ، وإنما بكل براءة وسذاجة وضياح ، تلقوا الأمر من قائد خسيس : لكي ينفذوا فلسطين والقضية .. لكي تكونوا أبطالاً نخذوا هذه المسدسات والقنابل وانحطفوا طائرة العدو المصري اللدود ، ونفذوا التعليمات ..

لم يتوقف أحدهما ليناقدش ماعلاقة إنقاذ فلسطين ، بقتل ركاب مدنيين أبرياء ، وهل الطائرة المصرية التي تقل فلاحين مصريين وركابا أجانب ، هي طائرة معادية مثل التي تحرق حاجر الصوت فوق بيروت كل يوم ، وتلك البقاع دكاً دكاً ، وتمسح قرى ومدن الجنوب اللبناني بلا أى ذرة رحمة أو هوادة ..

أبدا .. لم يتوقف أحدهما ليناقدش نفسه ، أو قائده .. فهو شاب عربي يريد الخلاص .. وقد أقنعوه أن الخلاص في اقتناع قيادته ، وثقته في تلك القيادة لاحد لها ..

فإذا كان قد تشكك أو تردد فإنهم كانوا يقولون له : وهل كان الفلسطينيون في دير ياسين وكفر قاسم وصبرا وشتيلة من العسكريين أم كانوا من الأطفال والنساء المبقورات البطون البارزات الأشلاء والأجنة ..

إننا نحارب إرهابا بارهاب ، وأعداؤنا إرهابيون سابقون ، وهكذا يجب أن نكون لنهزمهم ، وننتصر ، ونسترد الأرض والعرض ، غافلين عن الحقيقة التي يرددها دهاة الصهيونية أنفسهم من أن أخطر شيء على الإنسان أن يتبنى منطق

عدوه . وما دام منطق عدوه هو الإبادة والذبح والإرهاب فهكذا لابد أن نرد ناسين أن العدو هو الذى يريد بالضبط هذا ، فكيفانه قائم على الإرهاب ويموت الكيان لو توقف الإرهاب ، ولكى يرهب عليه أن يعتمد على بعض الحوادث الإرهابية التى نقوم بها نحوه ، ولهذا فمن مصلحته القصوى أن يستمر إرهابنا الصغير نحوه ليسدر فى إرهابه الكبير هو .. ولكن .

ولكن تلك طائرة مصرية وركابها معظمهم عرب ... و ...

فيجيب القائد الحكيم الخطير : إن مصر تقود القضية للسلام ، والسلام ضدنا ، السلام على طريقة عرفات ومبارك وحسين وصدام و٢٤٢ ، ٣٣٨ ، انه نفس الطريق إلى الكامب ، وإلى الخيانة فأذبحوا الركاب ذبحا فنحن نريد قطع هذا الطريق ، فلو نجحوا لصاعت القضية ، ضاعت القضية ، أترضون هذا ؟

وبالطبع لا يرضون ، وأمر كياسيدى ، هات البنادق والقنابل وإلى اللقاء المرتقب فى أثينا .. البطل المجهول الثانى ، يونانى أرزقى ، عرضوا عليه كذا ألفا لقاء أن يحمل لفافة من طائرة عربية إلى طائرة عربية أخرى رابضة بجوارها تماما ..

يونانى كادح ، ماذا يهمه هو ، أن تنتقل لفافة مها كانت محتوياتها ، من عربى إلى عربى ، أو حتى من يهودى الموساد إلى عربى طالما سيقبض مبلغا من المال يضمن له العيش المريح لعدة سنين ، ولو علم أن بالطائرة ثلاث عشر يونانيا سيدفعون بأرواحهم وبأطفالهم ثمن هذه السنوات المريحة ، ربما كان قد تردد

ولكن مثلما الحب يعنى ويصم ، فالمال ، أيضا يعنى ، خاصة الضمائر ويصمها .

وهكذا ترتحل الطائرة ، حاملة في جعبتها كل متناقضات العالم العربى والعالم عامة ، عربا وإسرائيليين وأمريكان ، ويونانيين ، وحتى فلسطينيين وخادمت فلسطينيات ، لتكمل المأساة ..

وهكذا تتحول القضية العربية والفلسطينية من مقالات يدبجها إخواننا الكتاب والمفكرون العرب ، مقالات تستهلك مثاث الملايين من الكلمات ، وآلاف التحليلات والتصورات ، ومثاث الخطب والتصريحات ، تتحول وتصبح كائنات حية ، تفقت كل هذه المجارى من الكتابات والتصورات إلى كياناتها الداخلية ، وأصبحت الخطب بشرا ، وأصبح الاستنكار قنبلة ومسدسا ، وأصبحت القضية من كفاح رهيب فى سبيل الحق والعدل والحرية إلى أبشع قيم مما قد يحفل بها قلب بشر ، ألا وهى أن تأخذ الشخص البرىء بذنب المسىء وأن يواجه الأعزل ويقتله بالسلام فى وجهه وأمام عينيه . لا يصبح فى قلب أى إنسان ذرة من بطولة أو شهامة أو إنسانية إنما هى الكراهية العمياء فى أحط صورها ، إنما هى الكائن البشرى حين يتحول إلى الإجرام وسيلة لحل قضية مقدسة .

فى غمضة عين كانت الطائرة مخطوفة ..

وكان الأبطال المغاوير الثلاثة قد سيطروا على الموقف تماما وألقوا أبشع أنواع الرعب فى قلوب الركاب ، وحتى فى قلب موظفى الأمن ، فما بالك بقائد الطائرة الذى يحس بالمسئولية الأكبر والأضخم ..

أمن السهل على أى إنسان أن يجلس إلى هذا المكتب ، بعيدا عن المكان والأزمان ، مستريح الخاطر إلى أنه فى أمان تام ، ويتحدث عن هذا الذى حدث داخل الطائرة؟. مستحيل ..

إن أى رفة جناح لطائرة عادية ، أو أى مطب هوائى تصادفه يسقط قلوب ركبائها جميعا ، مها بلغت شجاعتهم . فما بالك والأمر أمر اختطاف ، أمر حيوانات بشرية عمياء ، فى أيديها أسلحة فتاكة ، استولت على الركاب والطائرة والمصير ، والمصير والطائرة والركاب معلقون بين السماء والأرض .. أن البشر لا يتصرفون بنفس الطريقة فى كل المواقف . فالموقف المباغت خاصة لو كان يهدد صميم حياة الشخص يجعله يتصرف بطريقة لا علاقة لها بتصرفاته العادية أو حتى صفاته ، فالشجاع قد ينقلب جبانا ، والخائف يتحول إلى جبان أخرق ، ومن الإنسان العادى قد يولد بطل . ومن المفروض أنه بطل يتمخض الأمر عن فأر صغير مذعور .

وهكذا فهناك فارق هائل بين الصورة - ونحن نستعيدها الآن ، بعيدا تماما عن حدوثها - وبين الصورة لحظة حدوثها ..

فجأة .. شل تفكير الجميع .. الوحيدون الذين أصبحوا يفكرون هم السفاحون الذين اعتلوا الطائرة وسيطروا عليها ، بل أعتقد أن هؤلاء الآخرين كانوا يعانون فى داخلهم رعبا قاتلا ..

وهنا ، وفى مثل هذا الجو تتجلى بطولة رجل الأمن المصرى : مدحت فأمامه ثلاثة قتابل يدوية مصوبة إليه وإلى الركاب .. وثلاث فوهات مسدسات ، ومع هذا قرر أن يؤدى واجبه ، وما دام واجبه أن يقاوم الإرهاب ،

فليضرب وليتظاهر بإخراج جواز سفره . ويخرج مسدسا . معدّا . يردى به قائد العملية بثلاث طلقات مفاجئة مصوبة بعناية

ولكن زملاءه كان هم تصرف آخر . فقد آثروا الاستسلام وألقوا بمسدساتهم أرضا . هكذا دفعتم خلاوة الروح والرغبة في العجاة بالنفس أليس من سخرية القدر . وحكمة المولى . أن الذى تصرف بشجاعة وأدى واجبه هو الذى يعيش الآن . بينما هلك زميلاه اللذان آثرا السلامة والاستسلام إنها ليست سخرية أقدار . إنها قانون الحياة . فالبقاء دائما للأشجع . والحرص على الحياة هو بالشجاعة وليس باستهزاء واستكائة وأكل العيش بالجن يطيل العمر . كان خالد بن الوليد رضى الله عنه أشجع فرسان العرب . ولهذا لم يميت أبدا في حرب فقد كان يدخلها فيهزم عدوه . ويعيش ويموت العدو ..

أما قائد الطائرة فأعتقد أن مسئوليته كبرى عن الفاجعة التى حدثت فى حالة كتلك هو مسئول فيها عن مائة إنسان . كان عليه حتى لو كان أشجع الشجعان أن يطيع أمر هؤلاء المجرمين تماما . فإذا أنت قررت أن تقوم بمهمة كالتى كلفوا بها . ووضعت رأسك على كفك . ونويت . إذا حانت اللحظة أن تفجر الطائرة وأنت فيها . فمن أبسط مبادئ الذكاء أن تطيع إنسانا كهذا طاعة عمياء لأنه يكون فى حالة نفسية مستعدا فيها لكى يقامر بأى شئ وبكل شئ ..

ولهذا كان قرار الكابتن أن يراوغ ويفرغ بنزين الطائرة ويفرغ إطاراتها من الهواء . كان فى رأى قرارا خاطئا لأنه عرض حياة الركاب للخطر أكثر . فعنى هذا أنه حدد قدرة التهوية . وقدرة الطيران . أى كسح نفسه وطائرته وأرقلها فوق مطار فاليتا لاحول لها ولا قوة ..

وقد فسر هو هذا بقوله أنه كان خائفا أن يرغمه المختطفون على التوجه إلى ليبيا حيث يفجرون الطائرة ، وهو تفسير قاصر فليس من المعقول - إذا كان المتهم هو ليبيا - أن تقبل تفجير طائرة على أرضها ، فن باب أولى أن يفجرها المختطفون في مالطة ، إذا كانت في نيتهم التفجير ، العكس هو الصحيح ، لقد كان من مصلحته ومصلحة الركاب والطائرة أن يتوجهوا جميعا إلى طرابلس حيث تصبح المسئولية مسئولية ليبيا بدلا مما هو حادث الآن من أن الدوائر الإعلامية العالمية تحمل مصر المسئولية عن مأساة الطائرة ..

ومن رأي أن الكابتن أصيب بحالة من الارتباك أدت إلى هذا التفكير الخطأ ، وأنا من مجلسي فوق مكثي هذا - لا ألومه ولست أعرف كيف كنت ولا كيف كان غيري يتصرف إن وضع في هذا الموقف ؟ !

الخطأ الأكبر الثاني الذي ارتكبه الكابتن هو مطالبته التدخل بقوات من خارج الطائرة تنقذ الموقف ، وإلحاحه في هذا بطريقة تدل على أنه كان يعانى شبه انهيار لا منقذ له منه الا بقوة خارجية. مع أنه يعلم تماما أن أى تدخل خارجي سيكون على حساب ركابه وعلى حسابه هو شخصيا . وقد تبع هذا الخطأ وكنتيجة له ، سلسلة من الأخطاء ، ففي سبيل التحريض على التدخل بالغ القائد في صورة الوضع داخل الطائرة بحيث أن المعلومات التي ذكره دفعت القيادة - العسكرية في مصر إلى سوء تقدير الموقف ، وكان القرار بالتدخل ..

وهناك طرق علمية للتدخل ، منها إدخال الغازات الخدرة . ومحاصرة الطائرة إلى درجة إسهاك محتطفيها حتى لو كانوا يقتلون أحد الركاب بين الحين

والحين ، أما المحوم بفرقة صاعقه ، ما أشجع أبطالها هم الآخرون وهم يواجهون خطرا لا يعرفون كنهه ، ولكنهم خضر العود والتجربة والإعداد بحيث هجموا على الطائرة. وكأنهم قوة أمن مركزى فى طريقها إلى قصر مطاهرة بالتفجير وقنابل الدخان ، والاقترحام بالقوة وحدها ، واقتحام قلعه محصنة ، يسيطر عليها مسلحون سوف يكون ضحيته بلا أدنى شك الرهائن الأبرياء

وبقيت بعد هذه القصة التى أريد أن أكتبها :

قصة شادية ..

كبيرة المضيفات ..

تلك التى أطلقوا سراحها لتبلغ رسالة إلى المطار ثم تعود إلى الطائرة .. وأريد أن أسأل كم امرأة أو فتاة ، لا فى مصر والبلاد العربية وحدها ولكن فى العالم كله .. تقبل ، أن تنقل مجلدها من حصار الحافظين والاحتمال شبه الأكيد للموت والقتل ، تقبل ، بعد أن تصل إلى مبنى المطار فى سلام أن تقرر وبمطلق إرادتها ، بقرار لا رجعة فيه أن تعود إلى حيث الرعب والموت ١١٩

إنه موقف يفوق فى رأى بطولة الفتيات والرجال الذين يقبلون أن يلغموا أنفسهم ليفجروا معسكرات وقوات العدو .. ذلك أن هؤلاء الفتيات والرجال مناضلون تربوا تربية ثورية نضالية بحيث يعتبر عمل كهذا من قبيل المهيات القتالية الثورية ..

أما شادية ، فلم تكن مقاتلة ، ولم تكن ثورية ، ولم تكن منضمة إلى حزب أو حركة ، ولم تكن فدائية ، كانت فتاة عادية جدا ، تعمل مضييفة ، وقد جاء علينا حين من الدهر كنا نعتبر أن الفتاة التى تقبل العمل كمضييفة ، فتاة تهوى

السفر والمغامرات الشخصية ، وهامى واحدة من كنا نعتقد فيهن هذا تتبدى لها
فى لحظة الواجب شخصية الفتاة والمرأة المصرية التى فى لحظات الخطر تصبح
أكثر تماسكا حتى من الرجل ، وتقبل التحدى ، وتعود بقدميها إلى حيث
ينتظرها الموت المحقق ، وقد فعلت .. بمنتهى البساطة ، ودون تردد ، دون
ارتعاشة لخص ، أو دمة تسيل ، دون أن يتداعى إلى ذهنها ، موقف بناتنا فى
أفلامنا السينمائية ومسرحياتنا اللاتي يرتعن من رؤية صرصار ، .. و ..
(يفقن) بالصوت لدى شكهن فى وجود لص ..

هاهى فتاة مصرية عربية حقيقة ، عروس تستعد للزفاف ، ناضجة وليست
مراهقة فى السادسة عشرة أو العشرين إذ هى فى الثالثة والثلاثين ، تقبل بمطلق
إرادتها أن تذهب إلى الجحيم القابع على أرض المطار دون وجل أو تردد ..

لماذا فعلت هذا ؟

إنه الإحساس بالواجب ، وبكلمة الشرف ، وبالوعد الذى قطعته ونحجلها
أن تنقذه ، نفس هذه الأحاسيس التى هربت من بعض موظفى الأمن فى لحظة
الجد ، فاستحالوا إلى أداة لمساعدة الخاطفين ، وجر الجرحى ، وإلقائهم من
الطائرة .. يا لعار بعض الرجال !!!

ويا لشجاعة بعض النساء !!!

فالشجاعة ليست رجلا وامرأة . الشجاعة إنسان ، رجل أو امرأة ، يحس
بواجبه ، ولا يتردد فى فعله ..

سأكتب قصتها وليتنى أملك ساعتها شجاعته ، لأودى واجبي ككاتب
تجاه فتاة ضربت مدينتها السويس فأبت أن تغادرها وهى بعد لا تزال صبية

وأدت واجبتها تجاه الوطن إلى آخر لحظة في حياتها . وإن هي إلا مثل واحد
أضره لمن لا يزالون يعتبرون المرأة حرمة وعورة وخطيئة وعيبا . من الختم أن
تحتجز ، كالعار في الحرمات والمنازل . وتفوم حولها الأسوار لأنها
(بطبيعتها !!) ميالة للتبدل والتبرج وإشاعة الفتنة في عالم الرجال .. ماذا
تقولون عن هذه المرأة التي أشاعت (البطولة) في عالم رجال معظمه تصرف
برعونة وتخاذل وجبن !! ؟

من بين أبرز الرصاص وقنابل دخان الحرائق واستغاثات البشر واختناقات
الأطفال والجثث المكومة . الجثة فوقها جثة . وحياة بأكملها وأسرها فوق
حياة . ومأساة فوق مأساة . تتبدى لنا القضية العربية في صورتها الحقيقية تماما
فهي لم تعد قضية نظرية ومطالبات استقلال أو وطن ، وإنما نحج أعداؤنا بالخارج
وأعدائهم في الداخل في أن يقلبوا سرطانا داخليا يتمدد في داخل كل مواطن
عربي على حدة ، يقلبها حربا على أنفسنا من أنفسنا ، وإهدار الكل قيمة عليا في
شبابنا قلم يعد الفلسطيني فلسطينيا والعربي عربيا . ولكنه أصبح فلسطيني أبي نضال
أبي عمار ، وعربيا مشرقيا وعربيا مغربيا ، ومصريا منبوذا ومخابرات وحرب مخابرات
جبانة ورعديدة وطعنا في الظلام ، وجهنم أقامها العرب من أجل العرب
وبالدات من أجل مصر المصريين . من أجل (ثورة مصر) أي ثورة لمصر تقتل
المصريين والعرب وتبيد الفلسطينيين ، أي ثورة عربية أو حركة أمل أو دروز أو شيعة
نحولت إلى عصابات وقطاع الطرق . بأخس الوسائل تتقاتل وتفسد ويبعد بلا أي
عقل أو صواب أو تمييز .

وإذا لم تصدقوا فشاهدوا معي صورة الجثث مرة أخرى وصور حطام

الطائرة . وصور الهول الذى قام به العرب . خرب العدو فى الداخل والخارج
نفوسهم ، شاهدوا ذلك الحطام من الصلب والبشر والأشلاء

شاهدوا أم شادية بملابسها البيضاء . فى المطار وهى تقول أنا أم البطلة
وشاهدوا مدحت فى مرقده بالمستشفى راقدا رقدة أسد نهشته مجموعة فئران
مذعورة قامت بأحط عمل جبان فى التاريخ .

شاهدوا كل ذلك لتذكروا ما آلت إليه القضية

ولتذكروا أيضا أنه ، رغم كل شيء . ورغم المأساة ، ففينا بطلات من
النساء وأبطال من الرجال ، بل وفينا القدرة الكاملة على أن نحارب ونتصر
أما الإرهاب فلا . فالإرهاب بضاعة إسرائيل وعدتها .. والحرب الشجاعة
وجها لوجه هى عدتنا .

شاهدوا حطام القضية ، وتذكروا جيدا ذلك الحطام .

وهنيئا لك يا إسرائيل .. وهنيئا لك يا مستر ريجان الذى بدأت القرصنة
وتؤمن بها ..

وهنيئا لك يا « أبو كذا » « أبو كذا » « أبو كذا » « أبو كذا » ..
أما أنت يا مصر ..

أما أنتم أيها الفلسطينيون الأحرار ..

أما أنتم أيها الأبرياء الذين راحو ضحية لاحول لها ..
فلكم العزاء ..

فالله سبحانه وتعالى يهمل ولا يهمل ..

وما خا دث مصرع ٢٥٠ جنديا أمريكا يحرسون اسرائيل في سينا ، يبعد ..
اللهم لا شمانة . ولكن أيها الناس ، هناك عدالة إلهية على الأرض ..
أقسم أن هناك عدالة إلهية على الأرض مع عدالة السماء .

فهرس

٥	حديث
١٥	لقاء حافل مع دورسارت
٣١	دورسارت في مصر
٥٢	افتح الحنفية يتزل كوكابين
٦١	المساحة المحرقة
٧١	ضحك الجنازات
٧٩	مهزلة دوديناتي
٨٤	الأب الغائب
٩٢	ملعبة التلفزيون
١٠١	هوى النجم
١٠٤	جولة في عقول القراء
١١٢	أسرع يابني وصور
١٢٠	إيريس بين الحكيم ومطاول
١٣٠	لكي نعيش الحاضر لابد أن نعرف المستقبل
١٤٠	حنماً ساكب قصنها

رقم الارتفاع ٠٠٨٧/٢١٦٠
التراكم المسجل ٠ - ٠٧٩ - ١٤٨ - ٩٧٧

قالت الخاتمة ان هذه الحروب كانت الكبر ان مصروف يرى الله في داسه
حادث كذا تلك الاشارة اليه مؤلفه هذه الخاتمة : فاما عن ربه هذه النية ١٩
فصحت وهو يقول : هذه نية لا فيها وشرك لا ادعيه : فالتى لا يرى الله في
داسه : ليس هو ذلك غير مصروف او غير مؤمن : ولكنه هو اسك بالرا : وليست من
اولئك الذين يهرون ان يتخلصوا من زعمهم به : فاما في فعل العمل الهالك لا يترك عن
العمل والقلب : والحرب والرقص : والمدبول والسرور : فعمل هذا هو ملكهم
واما ان يتركه عن ربه : فالحق : فاعمل اليه :
بوصف اقرين

To: www.al-mostafa.com